التعسف

Arbitrariness

رواية مشتركة

A joint novel

حكمت الحاج و عواطف محجوب

كناية كتاب الجيب

Arbitrariness

التعسف

رواية مشتركة

كتاب كناية ©™ KinayaBooks

سلسلة منشورات ورقية ورقمية تحت إشراف حكمت الحاج.

"كناية" مشروع ثقافي يهدف الى إيصال الكتاب العربي إلى العالم بأبهى حلة.

KINAYA BOOKS™

A series of books overseen by Hikmet Elhadj

www.metonymykinaya.com

kinayanour@yahoo.com

ISBN 978-1-300-60133-3

3

التعسف

يُعرّف التعسّف (بالإنكليزية Arbitrariness) بأنه الحالة التي يُحدد بها الشيء بناءً على صدفة، أو نزوة أو اندفاع، عوضاً عن الضرورة، أو المنطق، أو المبدأ.

كل شيء قابل للتعسف

نجمة

جلست والخوف بعينيها تتأمل "ضرب الرمل" على منديل العرافة التي لا أحد يعلم في كل "الحوايز" من أين أتت ومن هم أهلها ومنذ متى هذه العجوز هنا، ولماذا لا يطردها أحد طالما أنها مَجلبة للشرور، كما يدعي ذلك "الشيخ تراب" إمام الجامع الوحيد في القرية.

تذكرت الإمام وهي غير مقتنعة إنه إمام بحق وحقيق، لا بل هي متأكدة أنه لا يحفظ من القرآن إلا "المعوذتين" و"قل هو الله أحد" وربما قليلا من "آية الكرسي"، لكنه يمتلك عينين لا تخطئان أبدا الولوج تحت ملابس النساء وكشف مستور أجسادهن حتى ولو كن يلبسن فوقها أسمالا نتنة انتشر فيها الدود والعفن. تذكرت سحنته القميئة ورائحته المميزة بالعطور الزيتية الرديئة التي يأتي بها كل عام مرة عندما يزور جامع الزيتونة المعمور في الحاضرة. تذكرته فامتقع لونها، وأحست بمغص أسفل بطنها، لكنها قررت المضي في الاستماع إلى أكاذيب الدجالة المشعوذة، فهي تعلم إنها ستبتزها كالعادة وتأخذ منها ما تريد نظير أن تقص عليها طالعها السعيد وحظها الوردي في الأشهر القادمة.

أمامكِ طريق طويل ينتهي بجسر، سوف تعبرينه وأنت تركضين، لأنه سيكون لديك حينها ثلاثة أرجل هي التي ستأخذك في قفزة إلى هاوية الحظ، من خلال وضع كل آمالك في تحقيق حلم

معين، دون معرفة النتائج، على الرغم من أن لديك أكبر القوى الإيجابية في عقلك وروحك.

لم تفهم "نجمة" شيئا من هذا الكلام، إذ خيل إليها إن العرافة العجوز إنما وكأنها تقرأ في كتاب أو في صحيفة أو شيء من هذا القبيل، لكن "مباركة" كانت تغمض عينيها تارة وتفتحمها تارة على منديل الرمل المفروش أمامها، وتنكش بعصا مأخوذة من غصن أحد الأشجار، الحجرات الثلاث الملونة الغارقة في رمل المنديل.

انظري، هذه هي بالضبط العلامة التي كنت أنتظرها لمعرفة الوقت المناسب لقفزتك الموعودة. نظرتْ "نجمة" جيدا فلم تر شيئا يذكر. رفعت عينيها إلى عيني العرافة غير متجرئة على سؤالها. واصلت العجوز التي تشبه ساحرات أفلام الأطفال التي يشاهدها ابنها "أمجد" على قنوات التلفزيون المجانية أيام العطل المدرسية، قائلة: "هذا يُظهر أنكِ قد فعلتِ الشيء الصحيح بوضع ثقتكِ فيَّ أنا. أنا مباركة، أم الأوقات الصعبة، والتي بقدرة قادر أحولها إلى أوقات هنية".

هذه هي فرصتك الأفضل لتجربة أي مشروع تخططين له لابتزازي وسرقة أموالي، أنت أيتها الشريرة الحقيرة، وذاك الخنزير البري، حطاب، الذي لست أدري كيف أني ذات يوم كنت أريد الزواج منه. أرادت أن تبصق في وجهها، لكن العرافة كانت مستمرة في قرقعة صوتها المعدني وهي تحذر من التشاؤم الذي يضربنا عادة في الحياة، مع وجود عقبة صغيرة في الطريق.

انظري يا نجمة يا بنيتي.. انظري. انظري بعينك كيف تظهر على صفحة الرمل المقدس هذا الذي أمامك، تلك الصورة المرسومة جنب هذه الحجرة الداكنة. انظري جيدا. انه رمز للملاك الذي لا يظهر إلا لمن يشعر بالرضا عن الإنجازات التي حققها. إنها

صورة تشير إلى شخص، سواء كنتِ أنت أو أي شخص آخر في حياتك، يثق بنفسه، وقد حقق الأهداف.

رفعت نجمة رأسها عن منديل الرمل المقدس وحاولت الابتسام لكي تبدو وكأنها مندمجة مع خزعبلات العرافة، لكنها كانت تشرد بفكرها بعيدا.

أهداف؟ أية أهداف؟ تساءلت نجمة بينها وبين نفسها وهي تغرق عينيها وفكرها في "ضرب الرمل" الذي يقبع أمامها بينها وبين مباركة التي لا بارك الله فيها دنيا وآخرة. لقد استطاعت أن تتزوج "بوراوي" في آخر المطاف ورغم كل المشاكل التي حصلت، وأنجبت منه "أمجد"، ذاك الصبي الجميل الذكي ذي الوجه الملائكي. لكن ذلك الكابوس الجاثم فوق صدرها وعقلها، الحطاب، ما زال يلاحقها، قبل زواجها وبعده، وهو ما زال يفلحها ويحرثها وقتما يشاء، دون أن تتمكن من ردعه. فإن يده باطشة، ولسانه زفر مسموم، وعقله فارغ مثل حيوان، وهو متربص بالغدر مثل ضبع. تعطيه ما يريد اتقاءا لشره وقد كفت عن حبه منذ زمن طويل، بينما هو لا يعبأ بتلك المشاعر طالما أنه ينال وطره منها حينما يجوع إلى جسدها الذي كان مضرب الأمثال في القرية، لا بل حتى في مركز الولاية القريب، أين وصل صيت جمالها وسحر مشيتها ولون عينيها. كان يهددها صراحة. يهددها في ولدها مباشرة. سأخفيه عن الوجود وأجعلك تبكين عليه العمر كله. فتسترضيه وتعطيه جسدها وفوق ذلك ما تملكه من مال.

كانتا تفترشان الأرض وتقابل إحداهما الأخرى، وبينهما "ضرب الرمل"، ذاك المنديل الأخضر المربع الكبير الذي ترصعه العجوز بأحجار ثلاثة مختلفة في حجمها ولونها. حجر للثروة، حجر للخلفة. حجر للصحة. ذات يوم أضافت للمجموعة حجرا رابعا يختص بطلبات الزواج لكنها فيما بعد عدلت عن ذلك بسبب المشاكل التي نشأت بين الفتيات الراغبات بالزواج، وبين الشبان

الذين في الغالب يغيرون آراءهم في ربع الساعة الأخير تاركين حبيباتهم تحت رحمة الأقدار وعنف العوائل وغدر الزمان.

تنحنحت نجمة وعدلت قليلا من جلستها وقررت أن تتكلم أخيرا. لابد لها أن تتكلم. لقد جاءت هنا لأجل أن تتكلم.

إذا كنتِ أنتِ هي تلك الصورة المرسومة على الرمل، فإن ذلك يعني أنكِ شخص ملتزم جدًا ويساعد الآخرين ويدفعهم لتحقيق النجاح المرغوب فيه، ويكون معهم طوال الطريق. هزت "نجمة" رأسها كأنها توافق على هذا الكلام الفارغ الذي لا ينطبق عليها أساسا، وليس أمامها سوى أن تتحمل ثرثرة هذه الشمطاء، لتصل إلى ما هي قد جاءت أصلا لأجله. أخرجت بعض الأوراق النقدية من سطوشها وتعمدت أن تريها للعرافة بدون قصد، وسرعان ما دستها تحت فخذها، واستمرت في الإصغاء.

تشجعكِ الصورة الثانية التي يؤمنها لك الحجر الثاني على الاستمتاع بما لديك حاليًا. على الرغم من أنه قد يكون لا يزال هناك حاجة لتحقيق أهدافك، فمن المناسب في هذا الوقت أن تقدمي مكافأة ولو قليلة لنفسك على ما قمت بتحقيقه.

سأشنقكِ ذات يوم بضفائرك الطويلة هذه يا "مباركة" القحبة يا من ركبتكِ الشياطين كلها والعياذ بالله. استمري يا خرا الكلب. انظري، يا نجمة يا غالية، ثمانية سيوف هي الصورة تحت هذه الحجرة والتي تشير إلى الألم واليأس الذي يسيطر عليك. يجب أن تبحثي عن حل أو مخرج عاطفي يتعلق بمشكلة معينة تستهلكك. تشعرين وكأنك معصوبة العينين، حيث لا يمكنك أن تجدي إجابة لحل هذه المشكلة التي تؤرقك. أنت مهمومة وبالك مشغول طوال الوقت، وفكرك يسرح وجسدك يذبل. ولكن لا تقلقي، لأن كل شيء له حل عندما تقصدين كوخ "مباركة" العرافة، العجوز التي لا يحبها أحد، والتي يحتاجها الجميع لحل مشاكلهم.

ارتعبت "نجمة".

هي أكيد لا تصدق السحارات التكازات المشعوذات، وبالأخص هذه العجوز القميئة التي تسكن هذا الكوخ الذي يقع خارج حدود "الحوايز"، في الطريق يسلكه القرويون كلما قصدوا الجبل المجاور لقريتهم في سبيل أن يبيتوا ليلتهم في العراء نساءا ورجالا وأطفالا وشيوخا لأداء طقوس احتفالية "الزردة" التي تعتبر مواعيد مقدسة عند أهالي القرية وحتى بعض القرى المجاورة ممن تجمعهم مع الحوايز بعض المصاهرات والاختلاطات.

وإضافة إلى صنع الطعام اللذيذ الذي تنتشر رائحته في السماء لتدوخ حتى الملائكة، يحضر مغنون ومنشدون لا يحملون من الآلات الموسيقية إلا الدفوف الكبيرة، ليغنوا حتى الصباح ويشدوا بأشعار كانت تسكر نجمة كل مرة تذهب فيها إلى الزردة، لا بل إنها تذهب كل مرة الى الزردة لأجل فقط أن تستمع إلى تلك الأصوات وهي تمزق ستر الليل البهيم، بينما الذئاب من بعيد ترنو إلى هؤلاء البشر المجانين الجائعين الذين تتوسطهم النيران المشتعلة وفي قلوبهم تستعر نيران الحب والحياة.

كانت "نجمة" ترتجف. فما هذا الذي قالته العرافة؟ كيف عرفت ما هي فيه وما هي قد جاءت لأجله؟ هل حقا تعلم "مباركة" بدواخل الصدور؟ هل تعلم مباركة الغيب؟ هل تعلم بماذا تفكر وماذا تخطط له نجمة؟ يا إلهي لا، لا، لا لا تفعل. لا!

ومع ذلك، فالحل بسيط، وأبسط بكثير مما تتخيل. هي فقط تحتاج إلى أن تجلس لبعض الوقت أمام "ضرب الرمل"، تسلم نفسها للعرافة، وتنقي عقلها، وتفكر بوضوح. الإجابة واضحة أمامك يا نجمتي. البحث عن الحل لمشكلتك هو بين يديك. هذه المرة بين يديك. وفي أحيان كثيرة كان بين فخذيك. صحيح؟ أرجو أن ما تكوني قد نسيت! بين فخذيك العظيمين اللذين ركع لهما

أقوى الرجال، كانت تحل جميع مشاكلك، وهنا، في هذا الكوخ الحقير الذي كان يتحول بقوة العشق إلى جنة وارفة الظلال كما يقولون. وأنا كنت شاهدة على السحر ومفعوله. سحرك الذي سحري وكتبي ورملي وضربي وحجراتي لا يأتي شيء أمام سحرك أنت. صحيح أنت كنت تدفعين لمباركة الثمن الغالي وما كنت تبخلين، لكن مباركة أيضا كانت تقدم لك خدماتها السلطانية وتفعل كل ما يؤمن لك سعادتك وسترك ورضاك. والآن، يا نجمتي الضاوية، أنت هنا ويمكنك طلب مساعدة مباركة لتهدئة أحزانك. السلام الداخلي على بعد خطوة واحدة، فقط تحتاجين إلى الاعتقاد، إلى الإيمان بأنك ستفعلين ذلك.

ازداد الألم أسفل بطنها، وكانت قطرة عرق تنساب على عمودها الفقري بتسارع حتى تذوب في الثياب أسفل ظهرها. تمنت لو أنها لم تأت هنا، بل لو واصلت طريقها نحو بيتها رفقة زوجها وابنها وهم عائدون من "الزردة" لتجنبت هذا الكابوس. لكن، قد فات الفوت.

انظري يا نجمتي، هذا ما تقوله الحجرة الثالثة، على "ضرب الرمل"، في كوخ "مباركة" العرافة التي كشف عنها الحجاب، وقد دخلت الشمس بيت "المشتري" في آخر دورة الأفلاك القمرية. قولي آمين!

التگازة

عندما اشتعل العشب، تحول إلى شيء داكن قبل أن يظهر أي لهب، حيث ابتلعت الحرارة الخفية لونه، وتركت بقعًا صغيرة من العشب المحروق.

انتشر الحريق بسرعة مكتسحا سويقات العشب الجاف من أثر الصيف، مرتفعا، منخفضا، يتماوج في حركته على الأرض بفعل الرياح. انسحب الرجل وابنه إلى وضعية الجلوس على أعقابهم، متوترين ومتحمسين. كانت أعينهم مشدودة إلى رحلة النار، يراقبون مساراتها وتفرعاتها التي تتشابك في تدمير هش حتى وصلت أخيرًا إلى ذروتها، حيث اندمجت العديد من المسارات في اندفاعة واسعة واحدة من رقصة الدخان على مشارف "الحوايز".

ومن أغصان الأشجار البعيدة، طارت الغربان والزرازير، فاتحة أجنحتها، وعيونها السوداء تتعب، وأصواتها تناطح السماء. داخل أصغر شرفات البيوت المطلة على الوادي، عند أقصى انتشار للدخان، خرجت "نجمة" من باحة منزلها إلى المطبخ، وقدمها العارية تصدر صوتًا هادئًا على "جليز" الأرضية الخشن الرخيص.

"هل تشمين رائحة الحريق، أماه؟" انقض ابنها على درج المطبخ، وضرب أصبعه بحافة الدرج. استنشق نفسا قصيرا من الألم والتفت ليلاقي عيون والدته.

"أمجد، هل تشمها أنت؟" سألته والدته، وعيونها تضيق وهي تفكر في ترتيب الأولويات بين الدخان المتسلل وابنها المتألم.

اهتز الفتى، وخرج من الباب الخلفي ليشم الهواء في الخارج.

"انظر إلى السفوح"، قالت نجمة. "اسودت مرة أخرى... تلك اللعنات تقوم بحيلها المعتادة. حسنًا، ألن يتصل أحدهم بمخفر الشرطة؟". خاطبت نفسها.

"لقد نفد الحليب. سأذهب للحانوت." صرخ زوجها من مجلسه بلا سبب. شكرته لانتباهاته المطبخية المتأخرة: "هات لنا معك خلطة من المكسرات ملفوفة بجريدة هذا اليوم. دعنا نتعرف على ما يحدث حولنا في هذا العالم الكئيب". قال لها مستدركا: "لم لا تذهبين بنفسك إذن؟ دعيني أنا والولد نتفرج على الدخان البعيد". فكرت قليلا، ولم تعترض كعادتها، بل أذعنت ووضعت خمسة دنانير في كف يدها، وزمت فمها وهي تنظر بطرف عينها إلى زوجها كما لو أنها كانت لا تزال في السنة الأولى لزواجهما عندما كان "بوراوي" لا يرفض لها طلبا خوفا من أن تصعر له خدها، وتقلب نهاره ليلا دامسا. لكنها اعترفت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة إنها تحبه، بالرغم من كل شيء.

"اخرجي"، قال أمجد"، وهو يلوح لها بيده، ولكنها منحته ابتسامة طفيفة على الرغم من ذلك. "أنت لا تزال رجلي، أليس كذلك؟". اعترض الفتى وهو ما زال يضغط على إصبعه المتألمة، "لديك رجلك، أماه، وأنا خليني في حالي". وأشار إلى أبيه.

نزعت "نجمة" الملابس المعلقة على الحبل الذي ربطته بين مسمارين متآكلين في الشرفة، قبل أن تخرج إلى السوق.

لم يكن هناك ومنذ سنوات، أي ازدحام على مدخل الحانوت الوحيد في القرية، كما لاحظته اليوم. وكانت الصبية الجميلة داخله هي المسؤولة ولا شك عن ذلك. تمتمت نجمة لنفسها، وهي توافق على فكرتها المشوبة ببعض الغيرة وبعض الحسد

وبعض الحقد. "إنها جميلة، تلك اللعينة، حسنة.. يجب الاعتراف". عندما دفعت ثمن الحليب وخليط الفول السوداني وحبات الصنوبر، وفي طريقها للخروج من المتجر، اضطرت نجمة للعبور بجانب الفتاة. ضغطت جسدها لتقليل وجودها قدر الإمكان، ولكن عيناها لاحظتا صدرها المكتنز الواقف بقوة. "يا إلهي! ما هذا؟ إنه مثير حقا!". عند الاقتراب، كانت ملابسها فيها رائحة الدخان. خرجت "نجمة" من الحانوت واتجهت جنوبا صوب دارها على طريق الأسفلت المتصدع وقد داخلها شعور بالخجل لأنها فكرت بتلك الطريقة التي لا ينبغي لها أن تكون. "أهم شي المستويات!". وقبل أن تبتعد إلى المنزل، كان "الحطاب" ملتصقًا بالسياج الحديدي المشبك المنخفض للساحة الأمامية للمقهى، يراقب "نجمة" وهي تمر، كما تراقب البومة الفأر، جسده ثابت، مخالبه جاهزة، رأسه يدور على محوره.

"هيه يا بنت.. لديك ملامح هند رستم في جسمها"، قال بصوت مسموع وهو يقشر بأصابعه الخشنة عودا أخضر لشجرة بائسة، وعقب مستدركا بسخرية لاذعة "ولكن بدون جمالها". هذا ما يقوله دائمًا عندما يراها هذا اللعين، وقد تباعد موعد لقائهما في الكوخ الحقير للعرافة المشعوذة، أو تحت أية شجرة متطرفة في غابات الزيتون المنتشرة على طول المسافة بين "الحوايز" والمدن المحيطة بها. عندما يتضور جوعا الى جسدها يتحول إلى ذئب مخبول. يتحول؟ كيف يتحول؟ لا لا، انه حيوان كاسر في أصله، فهو لا يتحول الى حيوان، بل هو حيوان يتحول أحيانا نادرة إلى إنسان مثل باقي الناس. استمرت في طريقها عندما ظهرت سيارة إطفاء الحريق الحمراء القادمة من مركز الولاية عبر الشارع الرئيسي، وهي تصدح بعويلها المميز الذي يصم الآذان.

سارت في صمت.

ها هي لمسة الشمس على وجوههم تهدئ كل الألم. ريفيون وقد لمستهم الشمس بلا رحمة. يسيرون من حولها، تراهم ولا يرونها فقد شغلهم الدخان عن العسة والنميمة. في العاصمة يعرفونهم ومن قبل حتى أن يتكلموا. يعرفونهم من سحناتهم التي لوحتها شمس الجنوب. ريفيون. وهنا، في منازل الحوايز"، حيث يمكن لأشعة الشمس طوال النهار أن تلامس أسقف الأسطح والحيطان الزلقة، وتمزق طراوة الوجوه النضرة لتحولها الى بشرة جافة مقرمشة، يترك الحزن والفقدان والفقر أعماق القرية في ظل قاتم دائم.

عندما وصلت بيتها، تلقاها زوجها متقيئا الخبر. لقد عثروا على امرأة عجوز ترقد نائمة، ملتفة في رائحتها الكريهة على سرير مصنوع من صناديق الحليب، ودموع الماضي مختلطة بكحل أسود رخيص، تنساب على خديها المتعبين.

توقفت الرياح وانخفض الدخان ليحيط بالقرية. لا. لا يجب أن تتأذى العجوز. ولا يجب أن يتأذى أي أحد. هي خطة للتوريط فقط وليست للأذى. هي تريد أن تتخلص من الحطاب ليغرق في وحل حسنة وينساها.. لتحبل منه.. لتتمرغ فيه.. ليغتصبها كل يوم ويسرق مدخول حانوتها. المهم أن يبعد عني. لكن الموت! فلا ولا ولا. يا ربي! جاء أحد الجيران وهمس في أذن بوراوي بكلمتين لم تسمعهما نجمة، وانصرف مسرعا إلى منزله. انتشر الدخان فوق أسطح البيوت الخلفية. تراقصت أحشاء الدخان الرمادي بين السراويل الداخلية والألبسة المعلقة للتجفيف والجوارب الطويلة، مفككة الجهد الذي بذله الراغبون في غسل أسرارهم جميعًا.

وجه مباركة قد امتقع وتلاشى ليصبح ندوبًا. شعرها نما كثيفًا ورماديًا ليغطي فروة رأسها. وبعد تلك الأشهر من الراحة والدعة والطعام الجيد، يمتلئ الجلد والعظام بطبقة من الدهون. يختار "الحطاب" في ذلك المكان المنزوي أن يعتقد أن "نجمة"

أصبحت تبدو مثل أي شخص آخر. لا داعي للقلق. مجرد امرأة في منتصف العمر وقد تهدل صدرها ولم يعد عامرا مثلما كان. لا شيء يستحق النظر إليه. لا شيء يستحق الرؤية.

"أنا لم أؤمن أبدًا بالصدف. أؤمن بأن القدر يربط بين شخصين يحتاجان إلى بعضهما في نفس المكان، في نفس الوقت، لغرض غير معروف. هذا ما أؤمن به.

وفجأة، يزيل الله كل العوائق. يزيل كل شيء في الأفق وها هو... الرؤية واضحة.

لماذا؟ لماذا الآن؟ هل لكي نبدأ من جديد؟ لأننا كلانا شخص مختلف الآن؟ لأنه ربما في هذه المرة، النهاية السعيدة لها معنى؟ ربما في هذه المرة، لا يجب أن تكون القصة مأساوية؟ ربما في هذه المرة، الله يشجعنا؟ ربما في هذه المرة، نحن مناسبون لبعضنا؟

من يعلم.
ربما ستحتوي قصتنا على تشويق آخر؟
من يعلم.
شيء واحد أعرفه هو أن القدر يؤمن بنا الآن.
لماذا؟
لماذا نحن؟
ربما نحن نحصل على هذا الوقت والفرصة حتى يمكننا أن نعطي بعضنا هذا الوقت والفرصة...؟ أو ربما نحصل على هذا الوقت والفرصة حتى نستطيع كتابة حكاية أفضل معًا...؟
من يعلم!
فماذا نقول؟ هل ندين أنفسنا ونحن نستجيب للقدر؟ هل ندين أنفسنا ونحن نحاول أن نعرف؟
"لا يوجد محيط لا يمكن للحب أن يعبره، لا يوجد جبل لا يمكن للحب أن يتسلقه، لا يوجد ارتفاع لا يمكن للحب أن يحلق

فوقه، لا توجد هاوية لا يمكن للحب أن يجسرها، ولا يوجد ألم لا يمكن للحب أن يشفيه".

كلمات جميلة أستلها من كتابي المفضل الذي لا أملك سواه في بيتي، "غمسيس"، هذا إذا استثنينا "القرآن" و"البخاري" الذي لا يحلف بوراوي إلا به، وكيف تصلي" و"منقضات الوضوء" وكتب "أمجد" المدرسية!

في "غمسيس" أقرأ، أغرق فأجد نفسي، فأعيد الكرة وأعيد الغرق. اللعنة! هل أموت دون أن أعشق؟

وجدت "حسنة" نفسها تخاطبه في قرارة نفسها. لقد شاهدت ثلاث مسلسلات تركية وواحد مكسيكي حتى تكونت لديها تلك الذخيرة اللغوية وشيء من الشجاعة لكي تتمكن من كتابة رسالة إليه رغم انه لا يستحق كل هذا التقدير. هي تحبه وقد انخرطت معه في قصة لها أول وليس لها نهاية غير الفجيعة، غير إنها تعلم علم اليقين انه ما يزال يطارد تلك الأفعى فاتنة القرية ذات الجسد الذي يلوي أعناق الرجال. لماذا؟ وماذا تملك "نجمة" ولا أملكه أنا؟ ألست أصغر منها؟ أليس صدري أكبر من صدرها؟ صدرها يذبل الآن بعد إنجابها بينما صدري ينبت مثل تلة تنهض بين تلك الجبال البعيدة خلف الحدود. ماذا لو كنت أحبك بما يكفي... هل سيكون ذلك مناسبًا لك؟ ماذا لو كنت حاملا منك، هل هذا سيكفي؟

في داخل عمق غابة الزيتون، تستريح فتاة الحانوت الحسنة الجميلة وهي اسم على مسمى. وفي ظل النظارات الشمسية الكبيرة والحجاب الحريري المسروق، كانت هذه الحياة الجديدة المترفة بالعشق الخائف تفوق بكثير الليالي الباردة في غرفتها الوحيدة مع أب متعب مريض. أما النهارات فتقضيها مع هؤلاء الأغبياء من المتهالكين على شراء كل ما ينفع وما لا ينفع. جميعهم يمكنهم الذهاب إلى الجحيم. تميل إلى الأمام قليلا في مستظلها

تحت الشجرة العملاقة لتضع قطعة الكراميل المدورة في فمها وتهمس، حطاب، حطاب، تي وينك! متذكرة ليلة هروبها من "الحوايز".

عندما أسقطها الوحش تحته في الميناء، لم تكن بحاجة للتظاهر بالضعف؛ فقد كانت مرهقة حقًا. قدم لها سيجارة مشتعلة وهو يداعب خصلات شعرها ويهمس متعمدا إثارتها: "هذا يسمونه الجنس على الشاطئ. بيرات "سلتيا" وعلبة من الفول السوداني المحمص الفاخر، وليس من النوع الذي تبيعينه للخنازير". يضحك "الحطاب" مخمورا منتشيا محتفيا بهذا الجسد الباذخ تحته. وقبل أن تنطق لتدافع عن حانوتها وعن أبيها، رأته يبصق في وجهها ومن ثم يدخل فيها بقوة وعنف، بينما يغطي فمها بيده الأخرى كتما لصراخها الذي يجعل طيور الليل كلها تفيق.

"اسمعي يا عجوز النحس والنكد. أيتها النصابة المدعية أنك سحارة تگازة. أنا لن أعطيك مثل كل مرة كمشة دنانير بين وقت وآخر. سأعطيك ما يجعلك تتكيفين جيدًا مع الحياة وتعيشين مثل باقي البشر. سأكتب لك فدانين من الأرض التي تركتها لي أمي، وهي كل ما أملك، فقط لو تساعديني في التخلص من ذلك الخنزير البري الذي يحول حياتي إلى جحيم يومي مدمر. إنه لا يدعني في حالي يا مباركة. هذا الكلب الوسخ لا يكفيه أن يحرثني باستمرار فعلا مثل الكلاب، ويفتك أموالي ورزق عيالي، بل أصبح يهددني في ابني، وأنا لن أسمح له بذلك أبدا. يجب أن تفعلي لي شيئا، أرجوك، فكري، وأنا سأعطيك كل شيء.

أخذ الأهالي مسار الأغنام للعودة إلى القرية من الجبل حيث أقاموا زردتهم لهذا الموسم، وهم يغنون ويهلهلون ويضحكون ويشتمون بعضهم بعضا. هي وحدها من انحرفت عبر مسار طيني ضيق جدًا حتى كان عليها وضع قدم واحدة مباشرة أمام

الأخرى، والنظر إلى الأسفل لعدم تحطم كاحلها على الصخور والحجارة المحيطة بالطريق. حافظوا كالعادة على سرعتهم وخفتت أصواتهم بالتدريج عندما وصلوا مشارف "الحوايز"، وكانوا جميعا سوى أن تنقصهم فتاة جميلة والدها يملك الحانوت الوحيد في القرية، وكان اسمها "حسنة".

كان ذلك أول لقاء بينهما. هو أكبر منها عمرا وأضخم منها جثة، لكنها لطالما كانت تحلم به وتشتهيه. لم يكن يدخل الحانوت كثيرا، بل يكتفي بالنظر اليها من الخارج وهو متكئ على طرف سياج المقهى الرجالي المقابل للحانوت في بطحة السيارات وأحيانا تراه يجلس على أحد كراسي مطعم المشوي الذي يجاور المقهى، وأحيانا أخرى يتقاسم كوب الشاي مع "قليعي" سائق "اللواج" الذي ينقل الناس من وإلى مركز الولاية كل يوم.

بعد عدة ثوان، فهمت "حسنة" كل شيء. وعرفت ما الدور الذي ينتظرها. لكنها واصلت دور الفتاة البريئة الغبية عديمة الخبرة. هي لا تريد أن تفهم الكثير، ولا أن تعرف حقيقة النظرات المتبادلة بين مباركة والحطاب، ولا معاني الألغاز التي يتداولانها بابتسامات فيها رائحة الشبق والرغبة. هي تريد فقط أن يأخذها بين ذراعيه، وأن يكون لها وحدها، وستوافق على أي شيء آخر يطلب منها. لقد تعبت من الليل والوحدة والفراش البارد.

واندفعت النار باتجاه الأعالي ودخلت الغابة. انتشرت في غابة الزيتون لتنتشر بين الشجيرات التي تم قطعها منذ زمن بعيد. اشتعلت وريقات العشب وأشواك الصبار، وغطى الدخان مجال الرؤية بينما كان صراخ لذتها يغطي جسد النائم في الفراش ملتهبا بجحيمها الأرضي، وهي تركض عارية وألسنة النار تأخذها أكثر فأكثر إلى وسط الغابة.

"الحوايز" قرية صغيرة تقع في قلب الصحراء المجاورة لسلسلة جبال جرداء تشكل الحدود الطبيعية لبلدين متجاورين لكن

بعيدين عن بعضهما البعض بشكل غريب، حيث كان الغبار يهيمن على المناظر الطبيعية الجميلة. عاش السكان حياة بسيطة ومتواضعة، يعملون في حقول الزراعة ويعتمدون على الحيوانات للنقل والمعيشة.

لكن كيف أنشئت الحوايز؟

في يوم من الأيام، قرر شاب يدعى "علي أمجد" الذهاب في رحلة استكشافية في الصحراء. أحضر معه حصانه الأسود الجميل الذي يدعى "شبح". كان الشاب الوسيم يحب ركوب الخيل والاستمتاع بالهواء النقي والمناظر الخلابة.

بدأ "علي أمجد" رحلته بحماس وحب. تجاوز التلال الرملية والصحاري الشاسعة. وبينما كان يستمتع بالركوب، بدأت الرياح تشتد، مثيرة الغبار في الهواء. تدور الغبار حولهما، مغطياً الأفق الواسع.

فجأة، أصبح "شبح" مضطربا وبدأ يقفز بقوة، مما جعل "علي أمجد" يتمسك بقوة بظهره. بدأ الحصان يركض بسرعة عالية، مثيراً الغبار في كل مكان. قفز فوق الصخور وعبر الوديان بمهارة.

عندما توقف الشبح أخيرًا، كانا في مكان جديد تمامًا. كانا في خضم معركة ملحمية، حيث تتصادم الأسلحة وترقص الأقدام على الأرض. كان الغبار يطير في الهواء، ويغطي كل شيء.

كان "علي أمجد" مندهشًا ومذهولًا من المشهد الذي شاهده. لم يكن يعلم أنه سيصل إلى مكان بهذه الفوضى وهذا الدمار. قرر أن يتصرف بسرعة لإنقاذ أي شخص قد يكون في خطر.

قفز "علي أمجد" من على ظهر "الشبح" وتحرك بسرعة نحو الأشخاص الذين يحتاجون إلى مساعدته. قدم الإسعافات الأولية للجرحى وساعد في إخماد الحرائق. تحرك بسرعة وبراعة، مع قدمين تثيران الغبار في كل اتجاه.

بعد ساعات وأيام من العمل الشاق، تمكن "علي أمجد" من استعادة الهدوء والسلام في المنطقة. وتحت قيادته، بدأت قرية تزدهر. إنها "الحوايز". بيوت جديدة متلاصقة، ولدى الجميع ما يكفي من الطعام لهم ولحيواناتهم. لم يعد الأهالي يخشون ظروف الصحراء القاسية، حيث كانوا يعلمون أن "علي أمجد" سيكون دائمًا هناك لحمايتهم. لقد أصبح رمزًا للأمل والصمود في وجه الصعاب. وأصبحت قريته رمزا للفرح بعد أن عاشت الحزن حزنين. أصبحت قصة "علي أمجد" و"الحوايز" أسطورة، تنتقل من جيل إلى جيل. أصبح اسمه مرادفًا للشجاعة والبطولة، واسمها مرادفا للخضرة وكرم الضيافة، ولم ينس الناس أبدا ما مروا به من فوضى العاصفة الغبارية ومآسيها.

وطالما أن الرياح تهب والغبار يترسب، ستروى قصة "علي أمجد" وحصانه "الشبح" وقريته "الحوايز"، لتذكر الجميع بقوة الطبيعة وانتصار روح الإنسان.

لقد أسميتك أيها الفتى الجميل "أمجد" على اسمه. لتحمل إلى الأبد ذكرى جدي الذي بنى "الحوايز".

لم تعجب الطفل هذه القصة المعقدة، لكنه ذهب إلى فراشه للنوم ولعله أن يحلم بالشبح فلطالما تمنى أن يمتلك حصانا ليركبه عندما يذهبون للزردة، لكن والده كان يطلب منه التركيز على دروسه. مدرستك يا ابني هي الحصان الأسود الشبح الحقيقي الذي سيطير بك خارج حدود هذا المكان وناسه وحكاياته ومآسيه وفقره وشمسه الحارقة.

فكر الطفل "أمجد" في قرارة نفسه وهو يبتسم تحت اللحاف: الشبح، يا له من اسم جميل!

بوراوي

اتكأ بوراوي على درفة الباب غير المشرعة، يده اليسرى في جيب سرواله بينما يده اليمنى لا تنفك تفتل شعر شاربه وتلويه. لم تشح عيناه لحظة عن مراقبة الطريق من النصف المفتوح من الباب. منذ ساعات وهو على تلك الحال، لم يسمح للملل والغضب أن يجعلاه يترك مكانه ذاك. اليوم سيفعلها، سيقف أمامها كالأسد ويستجوبها بقوة وإذا ما رفضت الإجابة سيضربها وإن تعنتت سيقيدها ويعذبها. هي لينة طرية ولن تقاوم العنف، ستنهار مباشرة ويشفي غليله. اليوم يقتل الشك داخله وإلى الأبد.

نظر بوراوي إلى ساعته وتأفّف. سالت الشتائم نهرا من فمه. لم يترك لها جدا من سلالتها نائما على جنبه في قبره. لعنهم عن بكرة أبيهم. صعد الدم فائرا إلى صدغيه. وتكور الغضب غرابا أسود داخله. دار حول نفسه عدة مرات ثم خطا باتجاه الطريق، سيبحث عنها قبل حلول الظلام. وسرعان ما توقف وعاد إلى مكانه الأول حين تذكر أن الولد سيبقى وحيدا في البيت. يعرف أنه يخاف من البقاء وحيدا، وقد يخرج خلفه ويضيع أو تبتلعه الرمال الملعونة. حينما يحل الليل تُخفي تلك الرمال الطرق والمسالك، وتغيّر ملامح القرية فينكرها أهلوها. من النادر أن يتأخر أحد في الخارج، حتى المسامرات تتم في المنازل. وحلقات الرجال تلتئم كل ليلة في بيت من بيوت الأعيان عدا عدد من الشبان المتهورين يسهرون في المقهى الوحيد إلى وقت متأخر

يقاومون زحف الريح والرمال ويسخرون من الرتابة والعطالة ومن اختفاء الطرق بسلوك أخرى جديدة. فعلا الحياة هي إعادة رسم للتلاشي.

تثبت بوراوي من الوقت ثانية ويده اليمنى لا تتوقف عن فتل شاربه. وشرد بعيدا مع إيقاع خطوات حمار هائم مرّ بقربه.

حالما تقترب من البيت أسرع إليها وألطمها لطمة قوية تطيح بها أرضا. أضع قدمي على صدرها وأثبّتها جيدا حتى لا تقاومني. أعرف أن حذائي سيؤلمها جدا وستبكي كثيرا، ولكن يجب أن أفعل ذلك. عندها تصيح في وجهي:

ماذا دهاك يا رجل؟ كدت تكسر عظمي! أزح رجلك...
فأصيح فيها بدوري
أين كنت أيتها الفاجرة؟
تحاول القيام من سقطتها فأمنعها بتصميم يخالطه الحقد.
تجيب شبه باكية:
كنت عند مباركة التكازة. ساعدني على القيام هيا!
أضغط أكثر على صدرها بحذائي القديم. وأنا أصرخ بحدة وأكوّر قبضتي أمام وجهها:
ماذا لديك عند مباركة الشيطانة هذه المرة؟ ألا تملين من الكذب أيتها الفاجرة؟ لقد مللت قصصك المبتكرة في كل مرة. تكلمي وإلا..
ألوّح بقبضتي مجددا وأنا متأهب للكمها دون شفقة.
ماذا حصل؟ ولماذا تسبني هكذا؟
وتسألين أيضا. تقترفين الجريمة وتدعين البراءة. الأجدر بي قتلك أيتها الخائنة!

تنتحب هي وتتمتم بكلام غير مفهوم.

تكلمي بوضوح، أين كنت؟

كنت عند مباركة التگازة. شعرت بالمرض يعاودني. انظر هذا كيس الأعشاب التي وصفتها لي.

أُمسك بالكيس أمزّقه. وأنثر خليط الأعشاب الجافة في فم الريح. أضغط حذائي أكثر على صدرها. وأكرر عليها السؤال لمرة أخيرة:

أين كنت؟ ومع من التقيت؟

تعيد على مسمعي نفس الإجابة لكن هذه المرة بطريقة بطيئة مترددة:

كنت عند مباركة التگازة! لقد عاودني المرض. ألا ترى شحوبي منذ أيام؟

نعم مرات كثيرة كانت تغادر البيت وهي في قمة التألق وبعد ساعتين أو ثلاث تعود منهكة القوى شاحبة. تدخل الحمام وتستحم لوقت طويل ثم تذهب للنوم مباشرة دون سؤال عني ولا عن ابنها أمجد. ليتني حسمت أمري مبكرا. اليوم أقتلها إذا لم أعرف منها الحقيقة.

كالأسد الغاضب أنقض عليها ضربا وركلا. أمسكها من شعرها وأجرجرها داخل البيت. أقيدها بحبل، وأنهال عليها ضربا بعصاي الرقيقة التي صنعتها من غصن شجرة زيتون.

تولول وتصرخ ملء حلقها طلبا للنجدة من الجيران. لا أحد ينقذها مني هذه المرة. لقد عزمت على القصاص. لا يدافع أحد عمن باعت شرفها بأرخص الأثمان.

حين تتعب من الصراخ تتحول إلى السباب وترميني بأقذع الشتائم. ما يجعلني أغضب أكثر. تنقض يدي على عنقها وأصرخ فيها: من يكون؟ وهذا الولد هل هو ابني؟

تجحظ عيناها وتتوالى شهقاتها طلبا للهواء فأرخي أصابعي قليلا. تنتعش رئتيها فتصرخ:

لم أعرف رجلا غيرك فكيف لا يكون أمجد ابننا؟ من أين أتتك هذه الأوهام؟

أصفعها بقوة بكلتا يدي. وفي غفلة مني بطريقة ما فكت قيدها وحاولت الهروب. أخرج المطوى من جيبي وألحق بها. أمسكها قرب باب الدار وبكل الغضب المتأجج بداخلي أشلّطها في وجهها، تماما في منتصف وجهها. لتتوقف عن المقاومة وتنهار مكانها صائحة:

لقد شوهت وجهي! لقد شوهت جمالي أيها الدميم!

أقف خلفها وأرفعها لتقف ثم أضع شفرة المطوى على عنقها وأهددها:

هيا تكلمي وإلا ذبحتك كبهيمة!

ترتجف خوفا برهة ثم تخرج الكلمات مرتعشة من شفتيها المكتنزتين. تقدّم لي اعترافها كاملا بلسانها. ولأنني ذكي جدا أسجله بهاتفي، من يدري دائرة الأيام.

أركلها بقدمي وأضربها علّي أشفي غليلي. ثم أطردها من البيت. أحرمها من ابنها. لن تأخذ قطعة واحدة من حليها. لتذهب وتعمل بغيا وتنجب إبنا مدنسا لها وتشتري ذهبا بمال حرام. لقد خرجت من ذمتي

لم تجد غير ذلك الضبع حطاب لتخونني معه وفي قرية صغيرة كهذه لا يخفى فيها شيئا عن أحد.

لقد دنست شرفي الأولى بي قتلها

أركض خلفها محاولا اللحاق بها. لكن ضربات خفيفة على كتفي استوقفتني.

كررت نجمة ضربها لبوراوي حتى يستفيق. بدا ساهما في وقفته كأن حلما من أحلام اليقظة التهمه.

-فيق يا بوراوي فيق فاش تخمم؟
-هاه! نجمة! رجعتي!
-أي رجعت.
-ما فقتش بيك، عندي ساعة نستنى فيك!
-وين سرحت فاش تخمم؟
-نخمم فيك. قالها بارتباك مجرم بوغت وهو يخطط لجريمة.
-توحشتني ها بوراوي! راني غبت عليك ساعتين!
-ولو ساعتين، راني ما نطيقش تغيبي عليّا!
وليغطي ارتباكه المفاجئ سحبها إليه وعانقها بقوة كادت تكسر ضلوعها. استكانت بين ذراعيه قليلا ثم دفعته عنه برفق متسائلة عمّا يحدث معه. وضع بوراوي سبابته على شفتيها يسكتها. أمسكها من يدها وقادها إلى الداخل. قصدا مباشرة غرفة النوم.

سمع ابنهما أمجد صوت خطواتهما داخل البيت. ركض يبحث عنهما في غرفة الجلوس والمطبخ وحين لم يجدهما سحب ملعقة خشبية كبيرة وتطاول إلى زر النور يريد إشعاله، لكنه كان أقصر من أن يطاله. منذ بدأ يعي ما حوله كان يخشى أن تلتهمه الظلمة. تعثر في خطواته الصغيرة حتى بلغ غرفة نوم والديه. الباب مقفل وهو قصير لا يبلغ المقبض. جمع قبضته الطرية، طرق الباب وهو يناديهما مرارا. لم يحيرا إليه جوابا. فقط تناهى إليه صوت خشب السرير يئز بقوة. تكورّ الصبي قرب مدخل غرفة النوم مستأنسا بالحركة خلف الباب. غشيه نعاس مفاجئ. رأى فيما يرى النائم أنه يمشي في طريق لا نهاية لها. وأن رجلا ضخم البنية أصلع يدفعه بقوة ليواصل المشي كلّما توقف يستكشف المكان أو حاول الهروب والعودة. وعلى جانبيه كان يستشعر وجود شبحين ضبابيين لرجل وامرأة لم يتعرف إليهما لا يتوقفان عن

الصراخ والبكاء والركض. وبين الفينة والأخرى يغوصان عميقا في رمال متحركة ثم يخرجان ويواصلان الركض دون توقف. وحين جرّب أن يناديهما استفاق من نومه، وتلاشى الحلم بأكمله. وجد الصبي نفسه مستلق في فراش غريب وأمامه كومة من الحلوى والسكاكر. ومن فوق تدلت إليه لعبة سيارة مغرية. أمسك بها فرحا وانهمك في التفرج عليها وفحصها. لم يدر من أين طلع حطاب الذي ابتسم له وقبل جبينه ثم قال بلهجة مشجعة: هيا نلعب معا يا أمجد.

لوهلة خاف الصبي لكنه حين رأى حطاب قد نزل على أطرافه الأربعة في محاكاة للحصان وطلب منه الركوب، ضحك وركب ظهره دون تردد وهو يصيح جذلا:

عمي حطاب حصان سريع يحملني إلى بيتي!

لعبا قليلا ثم أصعد حطاب الصبي على كتفيه وحمله مع اللعبة والحلوى وركض به ناحية بيت والديه. وحينما لاح له المنزل، رأى الحطاب نجمة وزوجها بوراوي يخرجان ركضا كأنهما تفطنا لاختفاء الصبي. بسرعة أنزل الصبي وشجعه على الركض ناحيتهما. ثم استدار واختفى في الظلام الذي نزل بكل سواده تلك اللحظة.

احتضنت نجمة ابنها بينما بوراوي يحاول فحص بدنه الصغير ليتأكد من سلامته. استقر الصبي أمجد في أحضانهما ورد عن أسئلتهما المنهمرة بجملة واحدة: لقد اشترى لي عمي حطاب لعبة وحلوى!

قليعي

صفّ قليعي سيارة الأجرة على عجل في ساحة القرية كأنه يسابق وقت العشية. ثم نزل واتجه صوب المقهى. نفس الوجوه تتكرر في نفس الحلقات وجولات لا تنتهي من لعب الرامي والشكوبا. هل فقدت حواسهم وظائفها؟ ألا يشتمون رائحة الدخان؟ ألا يشعرون بالقلق وحريق ملتهب يمتد وينهش كل ما يعترضه. وقف قليعي في باب المقهى، تأمل الجميع مرات ومرات حتى صاح أحدهم من الداخل: "هيا زوز ما ندروش إلي عندك غريم وتلوج عليه؟" رد عليه قليعي بسؤال قلق: "ألا تشتمون رائحة الحريق؟" ضحك رواد المقهى ثم أجابه النادل ساخرا: " خرفت يا قليعي، ماك تعرف نوبة السحارة مباركة في هالوقت من كل عام تولي تحرق وتحضر خلطاتها للشيطان. برالها تداويك!" استدار قليعي وعاد من حيث أتى. وجد مرعي يتكئ على السيارة. نظر إليه متسائلا وقد انسحبت عن وجهه علامات الغضب التي كسته منذ قليل. ألقى السلام فلم يهتم مرعي برده وسأله عن رواد المقهى، كلامهم ونقاشاتهم والحطاب هل هو هناك؟ فأجاب قليعي ضجرا: "أنا نقلهم تشموش في ريحة النار والدخان وهمّا يقولولي مباركة تداويك" ضحك مرعي وانتصب واقفا بينما جمد قليعي قريبا منه وهو يفور غيظا. لم يقدر على امتطاء سيارته ولا الحديث مع الشرطي صاحب الملامح الجامدة. وفي نفس اللحظة استدارا ناحية المقهى حين سمعا صفيرا جماعيا ملأ أسماعهما. شاهدا الحطاب يقف في باب المقهى العريض. لا

يحرك ساكنا تحت موجات الصفير. كان يرمق الجالسين طويلا ثم غادر بخطوات واسعة ويديه معقودة خلفه.

مرّ الحطاب بالقرب من قليعي وبوراوي اللذين نكسا رأسيهما بمجرد التقت نظراتهما بنظراته.

أنا أخاف أن تفضحني عيناي فيرى فيهما الحطاب نجمة، الله غالب أنا مولع بها مثله تماما. أعرف السرّ لكنني لا ألوكه. أنا أخشى الحطاب فمن يخشى هذا الشرطي؟

يا إلهي لماذا لا أستطيع الثبات في وجه الحطاب؟ أبدو كمذنب أمامه الآن وأنا مطأطئ هكذا. ألانني تلصصت عليه في آخر لقاءاته مع نجمة؟ أنا شرطي وهذا عملي! يجب أن أواجهه ولا أخشاه.

حين رفع مرعي رأسه كان الحطاب قد اختفى، فانطلق راكضا يبحث عنه. صوت خطواته السريعة جعلت قليعي يرفع رأسه ويشاهد بعجب ركض الشرطي مرعي المجنون. ثم امتطى سيارته وغادر هو أيضا بسرعة مجنونة جعلت الإطارات تحتك بعنف على الإسفلت.

لا يدري الحطاب ما الذي دفعه إلى القدوم إلى الواحة في تلك الساعة، لا اتفاق له مع أحد ولا لقاء. العشية تسير مسرعة بالشمس نحو مغيبها. أتراه صدّق ادعاءات قليعي بنشوب حريق وجاء يتبين الأمر؟ يبدو الأمر أعمق من التفكير في اندلاع حريق. الحطاب اجتاز كل المسافة وهو لم ينتبه أنه غاص في الرمال ووصل الواحة. دلف من أول فرجة في السور القائم من الجريد المسند بالرمال. مشى ببطء وأفكاره تركض ركضا في جمجمته وتسبق خطواته. نجمة التي بدأت تذبل ومحاولاتها المستميتة في التخلص منه، وحسنة التي قامت بكل المحاولات حتى حملت منه. هل هو الآن أمام اختبار الاختيار؟ نجمة في آخر فترات صلاحيتها بينما حسنة في أوجها ولكن ثمة فرق كبير بينهما.

امرأتان رغم فارق العمر بينهما تتمتعان بنفس اللياقة ومجون الأنوثة. والسيء في الحكاية كلها أنه يأتي نجمة غصبا وتأتيه حسنة طواعية. نجمة فيها شيء يشبه إكسير الحياة، صحيح لا يحصل عليه بسهولة ولكنه ينهل منه في الأخير، يجعله أسعد وأهدأ ويمنحه شعورا بالأمان. حسنة كتلة من الشهوة العمياء أحيانا يعجز أمامها ويشعر بالانتهاك فيحجم عن طلبها ويكتفي رغم كل الإغراءات. دائما ما يرافقه شعور غامض بالتهديد والندم. نجمة تنبعث منها رائحة تذكره بأمه، كأنهما خلقتا من نفس الطينة لهذا يجعلها بكل الطرق تستجيب له أما حسنة فمجرد شابة طائشة لا تحسب نتائج تهورها. لقد أخبرها أنه مهما كان شهما لن يدفع معها ثمن جموحها وتهورها. حسنة لم تخضع لأحد غيره في قرية الحوايز رغم كثرة معجبيها ومحبيها وعشاقها. ونجمة باتت هدفا سهلا لكل الأيدي التي تمتد نحوها. أتترك الأصيل يا الحطاب وترضى ببقايا السباع وأنت المهاب في بر الحوايز وما جاوره. نجمة أنت الخيار الذي لا أحيد عنه مهما حدث. قعد الحطاب عند جذع نخلة ونظر بعيدا عند صفوف النخيل والرمان وما تحتها من نباتات. بدا ساهما كمن يصارع لجة ولا يخرج منها.

فجأة امتلأ الهواء برائحة بنزين قوية نفاذة. من أين أتت الرائحة؟ قام وتجول في أرجاء الملكيات المكونة للواحة. ولم يعثر على أي بنزين. فمن أين أتت الرائحة يا ترى؟ وصل الجزء الأخير من الواحة عند الجهة الشرقية، وبينما هو يتجه نحو البوابة يقصد مسلكا مختصرا يوصله إلى وسط القرية سريعا، دوت صرخة مباغتة غير بعيد عنه. وفي نفس اللحظة ارتفع دخان كثيف إلى عنان السماء وتحته تعالت ألسنة نار عريضة. لقد اندلع حريق هائل في طرف الواحة وسيأتي عليها سريعا. المفاجأة جمدت الحطاب مكانة. لكن صرخة ثانية أعادت إليه حركته. أتراها امرأة تستغيث؟ انطلق يبحث عن آنية يجلب بها الماء من سواقي الري. بعد خطوات قليلة توقف مفكرا، ماذا لو اتهموني

أنا بافتعال الحريق كما حدث في المرة الفارطة، وقضيت بسبب ذلك عشرة أياما محتجزا رغم أنني كنت أول من بادر بإطفاء النار حتى لا تنتشر. ركض الحطاب وبكل ما أوتي من قوة قفز فوق الحاجز المكون من الجريد والرمال. وقف برهة والتفت يمنة فشاهد خيال بعيد يركض ناحية القرية خمن بشبه تأكيد أنها حسنة. ثم حول وجهه ناحية الطريق المختصرة. رأى نجمة تختفي مسرعة في المنعرج. لم يكن الحطاب يدري من أين يعلو هدير السيارة هذا الذي يخالط صوت النار وإيقاع نبضه. لم يترك لنفسه رفاهية السؤال عن أي شيء شاهده وسمعه، بل جرى مبتعدا دون إتباع طريق محدد فقط يلوح أمامه كوخ مباركة التكازة بعيدا كنقطة في سفح الجبل.

وصل الحطاب منهكا. دون إذن دفع الباب وسقط أرضا. زحف ناحية "بيدون" الماء وسكب منه في أول آنية اعترضته. شرب قليلا وارتخى مكانه. سمعت العجوز مباركة الجلبة فخرجت من الجزء الداخلي للكوخ تستجلي الأمر. صدمها وجود الحطاب، كان يجب أن تكون النار قد لسعته في وجهه الآن ويتحول إلى مسخ يتوارى بقية حياته عن الأنظار. ها هو الآن يستلقي أمامها سليما معافى. كيف نجا؟ انحنت العجوز على الحطاب متسائلة. أجابها باقتضاب عن اندلاع الحريق في الواحة. ولولت العجوز وأسرعت ترتدي حذاءها. ثم أمسكت يد حطاب وجذبته آمرة: "هيا بنا نشارك في إطفائه وإلا ستتجه الأصابع نحونا!" في البداية رفض الحطاب، ثم استجاب بعد أن ذكرته بما حدث لبعض شباب القرية الذي تخلفوا عن المساهمة في إطفاء الحريق. لقد بدأ جسده يخونه فكيف سيقطع كل تلك المسافة مجددا بسرعة. بدت العجوز تهرول بخفة كأن شياطينا تحملها. جاراها في الحركة دون أن ينبس ببنت شفة حتى وصلا. وجدا أن كل أهل قرية الحوايز انصبوا في المكان. كانوا يخمدون الألسنة الأخيرة من اللهب. ومجموعة صغيرة منهم متحلقة حول شيء أبيض. نسي الحطاب العجوز، وتقدم متنقلا حتى وصل إليهم. لم

ينتظروا سؤاله، بل عالجوه بإجابة رجته حتى كاد يغمى عليه: قليعي التهمته النيران. رحمة الله عليه!

بصوت واحد ردد الجميع الحوقلة. وبدأوا يشكلون ممرا، مشى فيه الشرطي رعي برفقة وكيل الجمهورية وشخصان من الطب الشرعي وعناصر أمنية. بكل تأكيد لن يتورع عن فتح فوهة من جهنم على أهل القرية. أمسك بورقة وطلب من الحاضرين أن كل من يسمع اسمه يتقدم حذوه. بدأ برأس القائمة الحطاب وانتهى بنجمة. تسعة رجال ونجمة ساقهم الأمنيين إلى السيارة. أصعدوهم فيها بعنف وأغلقوا الباب. بقي اثنان للمراقبة بينما عاد الآخرون إلى داخل الواحة.

بأم عينه رأى الشرطي مرعي الحطاب يدخل الواحة، بأم عينه رأى نجمة تخرج من الواحة، بأم عينه رأى حطاب يهرب، بأم عينه رأى ثمانية أشخاص يتكاسلون عن إطفاء الحريق، دون شك هم متفقون مع الحطاب. الشرطي مرعي غدا هو الشاهد الوحيد في قضية الحريق الذي أكل قليعي اللواجيست. أخيرا وقع الحطاب ووقعت نجمة. أما الحطاب فمكانه اللائق به والذي يشبهه هو السجن وأما نجمة سيشهد لصالحها ومكانها أحضانه بلا ريب. وإذا ما ملّ منها يستعيض بحسنة حتى يعود شغفه بها. أليس هذا منتهى الدهاء؟ صفر الشرطي مرعي وهو آخر من غادر مكان الحريق. وشوقه للقاء نجمة يحفزه أكثر من معرفة قاتل قليعي. وليتجهز لذلك، قرر الذهاب مباشرة إلى الحلاق، وسيجبر صاحب الحمام على فتحه له، فالليل ما زال في أوله.

مرعي

يحمل الحطاب في أعماقه رجلا شهما أشبه ما يكون بالطفل، فهو طيب القلب ولا يتأخر عن مساعدة من يقصده. لكن مجونه وسكره جعلا سمعته سيئة. كل من في القرية يتساءل في حيرة، من أين يأتي بشرابه ونسائه. المرأة الوحيدة التي يعلم الكل أنه يخالطها جهرا هي التكازة مباركة. عجوز في السبعين من عمرها أشبه ما تكون بالقديد المجفف لن يجد فيها حطاب ما يجذبه إليها. هي في عمر أمه ولن يفكر فيها بطريقة منحرفة. فلماذا إذا يتردد دائما على كوخها. الجميع يتفق أنها تقرأ طالعه وتخبره بما تخبئه له أحجار الحظ، غير أنه يبالغ في الذهاب إليها. بدا الأمر محيرا مدة من الزمن، حتى جاء ذلك المساء حيث كان مرعي الشرطي يقوم بجولة تفقدية في القرية قبل أن يعود إلى البيت. الأخبار الواصلة من العاصمة غير مطمئنة وعليه أن يملك مفتاح السبق ويكشف كل تململ يمكن أن يحدث في قرية يسكنها حوالي الألف ساكن. وصل مرعي إلي الجهة الغربية من قرية الحوايز. ذلك الطرف من القرية أقرب ما يكون للواحات التي تحرسها جبال بعيدة صحبة كوخ التكازة مباركة. على مسافة لا بأس بها لمح مرعي حطاب يهرول في الطريق كأنه يريد الوصول إلى أحد بيوت تلك الجهة قبل نزول الظلام تماما. زاد سرعة دراجته الهوائية واقترب منه تاركا مسافة الأمان. شكر في سره النسمات القوية وهي تلهو بالرمال فغطت على صوت العجلات والدواسات ما جعله يقترب منه أكثر. رأى جليا صبيا

يجلس هادئا على كتفي حطاب. بيد يمسك رأس الأخير حفاظا على توازنه وبيده الأخرى قبض على كيس. يبدو أنهما كانا عند حانوت نجمة. من يكون الصبي؟ حطاب لا أولاد له وهو غير متزوج؟ تبعهما مرعي حتى إذا بلغا المنعرج الذي يؤدي إلى بيت بوراوي، أنزل الحطاب الصبي وقبله. ثم دفعه دفعة خفيفة، فجرى الصبي ناحية البيت. التفت حطاب يمنة فيسرة ثم أطلق ساقيه للريح. اختفى بسرعة مدهشة. تقدم مرعي مستترا ببعض نتوءات الأرض. غزا سمعه صراخ حسنة وسباب بوراوي. انتقل مرعي ليختفي خلف قن دجاج. من هناك رأى نجمة تحضن الولد وتقبله، بينما بوراوي يسأله بصرامة أسئلة كثيرة عن سبب اختفائه. يخرج الولد لعبة وحلوى من الكيس. يرفعها في وجه والديه قائلا: لقد اشترى لي عمي حطاب لعبة وحلوى!

بسرعة البرق حلل مرعي ما رآه وربط بين الشخصيات. وصل إلى تحليل دقيق ونتيجة جعلته يقول بصوت متعجب: نجمة وحطاب! وتسلل مبتعدا. سيراقب نجمة، هي تبدو الحلقة الأضعف في الحكاية وحتى لا يتورط في مشاكل مباشرة مع حطاب. يعلم أنه لا يسكت لمن يضايقه، يسلط عليه عقابا دون تردد.

حملت نجمة الصبي دلفت إلى الدار، يلحقها زوجها مرعي. اتجهت مباشرة إلى غرفة النوم. سينام الجميع على ذات السرير، من يدري ماذا سيحدث إذا نام أمجد وتركاه لوحده. أسند الصبي رأسه على صدر أمه بينما يداه تمسكان بإحكام بالسيارة. حاولت نجمة سحبها منه ورميها لكنه تمسك بها محتجا بكلمات بريئة خالطها صوت شخير بوراوي الأجش:

-أمي أنت علاش تكرهي عمي؟

-منين عرفت إني نكرهه. أنا لا نكرهه ولا نحبه.

-تكرهيه خاتر شرالي لعبة وحلوى.

-لا ولدي ما نكرهوش..

-تكرهيه! شفت عيونك كيف اسوادو وسنونك كيف نزلت عليهم كي قتلك شرالي لعبة وحلوى!

-لا مش صحيح ولدي قتلك حطاب ما يعنيلي شي. أنا خفت عليك لا يعملك حاجة ظنيت الي هو خطفك.

-أنتم خليتوني وحدي وسكرتو بيت النوم عليكم. قعد نستنى فيكم بعدها رقدت وما حسيتش بروحي. وفي النوم حلمت بروحي نمشي في ثنية ما نعرفهاش. كي فقت نلقا عمي حطاب معاي وشرالي كرهبة وحلوى.

-نعرفه ساقط.. قلي يا ولدي، هو ما عملك شي؟

-ما عملي شي شرالي لعبة وحلوى شبيك ما تفهمش.

-هو حب يخطفك غير خاف مني.

- يا أمي علاش تكرهي عمي حطاب؟ خاتر شرالي لعبة وحلوى؟ مالا حتى خالتي حسنة ما تحبهاش. حرام ربي ما يحبش الأشرار.

-وين شفتها حسنة، قلي يا طفل أش صار فيك أش عملولك الهمّال؟

-ياخي إلي يحبني تقولي عليه كلام خايب زي هكا. أمي أنت شريرة وأنا نخاف منك.

مدت نجمة ذراعيها لتحضن ابنها أمجد، غير أنه تفاداها ونزل من الفراش. وقف في الباب وقال غاضبا:

سكري عليكم الباب وحركي السرير زي ما تعملو كل مرة وانسيني. أنا نخاف منك شريرة. بش نقعد في الكلوار زي المرة لُخْرا بالكش نرقد، وكي نفيق نلقى روحي عند عمي حطاب.

لحقت نجمة بابنها معتذرة. أقسمت له بأغلظ الأيمان أنها لا تكره لا حطاب ولا غيره. ولتثبت له ذلك طلب منها أن يلعبا بالسيارة اللعبة وتشاركه أكل الحلوى. كتمت غيظها ونفذت ما طلبه الصغير. ولعبت معه حتى غزاه التثاؤب. حملته إلى سريرها. نام مباشرة حذو والده بوراوي. جذبت الجريدة لتقرأ آخر الأخبار ريثما يصل الكرى إلى عينيها، لكنها عوضا عن ذلك وجدت نفسها كمن يقلّب الأمور من كل أوجهها. وفي طرف آخر من القرية استلقى حطاب على سريره. على غير العادة لم يخرج للسهر مع رفاقه. بدا ساهما يركض وراء حبل من الأفكار.

ذلك الحقير حطاب لم يكفه استباحه لجسدي، يريد تلويث عقل ابني وإفساده. يجب أن أضع له حدا. وألقنه درسا لا ينساه حتى لا يقترب من أمجد ثانية.

ليمت إذا تطلب الأمر دلك.

نجمة! أأعجبك الدرس الأول؟ إنها محاولة تجريبية فقط. يعني ليست جدية. أردت فقط أن أرى ردود أفعالك. بقدر خوفك على ابنك ستنتقمين مني. أعرف أنني كتلك الشوكة التي تعلق في الحلق، ولكن ماذا أفعل. أنت لي حتى ولو تزوجت بوراوي البوهالي. لن أتركك مهما حدث. إكسير حياتي مسكوب في جسدك. لا غنى لي عنه. مضطرة أنت للسكوت وإلا...

يجب أن أذهب إلى مباركة الشيطانة. سأعطيها الضوء الأخضر لبدء ما اتفقنا عليه. أصبح من الضروري أن يتركني هذا البغل ألا يملك عقلا ويفهم أنني ضقت ذرعا به؟

أيتها الملعونة أعرف أنك ستنفذين مخططك بسرعة قصوى. لن تتسامحي في موضوع خطف ولدك. ستكونين كالأفعى الغاضبة التي ترمي بسمها لمسافات طويلة. حاولي يا نجمة. ولنرى ما أنت فاعلة. أعلى ما في خيلك اركبيه أيتها الفارسة...

أقضّت الريح القوية هدوء الليل. فخلخلت الأبواب والنوافذ وحملت جحافل الرمال. وألقت حول المباني فغطت أجزاء منها وردمت معظم ملامح القرية. نام حطاب مستلذا صوت الريح وصفيرها. بينما أحست نجمة بالوحشة فلم تستطع النوم. أطفأت نور الغرفة وتركت الأباجورة بجانبها مضيئة. كم تريد أن تستسلم للنعاس الذي بدأ يحرق جفنيها. لكنها كلما أغلقت عينها رأت حطاب وعيونه الجاحظة تحملق فيها، ويطبق كفيه حول رقبتها فتختنق ويغمى عليها. تجاهد وتفتح عيونها تركز على الحائط أمامها. ترتسم لها صورة حطاب ثم سرعان ما يخرج من الحائط فينقض عليها. أطلقت نجمة عقيرتها بالصراخ وارتجفت شبه مغمي عليها. استيقظ أمجد مرعوبا. جلس مكانه وهزها من كتفها فلم تستجب. أمسك بيدها يهزها بقوة ويناديها. رويدا رويدا عادت إلى دنياها. حالما فتحت عينيها ابتسمت للولد حتى تطمئنه. قال لها بروح طفولته البريئة: أمي تبدين مريضة. أبي نائم، هل نتصل بعمي حطاب ليجلب لك لعبة وحلوى. ستشفين سريعا.

ضمته بقوة وانزلقا تحت الغطاء، سيناما متعانقين ولن تشعر بالخوف أبدا. زأرت الريح في الخارج أكثر كأنها تسخر من الشرطي مرعي وقده غطته الرمال تحت نافذة غرفة نوم نجمة. لم يكن قد سمع أذني كلمة مما قيل. يا لحظك يا حطاب! الطبيعة تتدخل لصالحك ثانية.

الحطاب

"أين نجمة؟" صاح فجأة. "إنها عند حسنة الآن." يا إلهي.. هل هي نجمة الصباح اللامعة، وفتاة ريفية أيضًا!؟ هذا كثير. كثير. نخاف لتصير مشكلة ومانيش ناقص. في بعض الأحيان يكون عاجزا، وفي بعض الأحيان مثارا، على الرغم من ضعفه. ظل "الحطاب" محايدًا، لا يستمتع بحيل "نجمة" الجذابة ولا يقلق بشأن تقديرها لقوته الجنسية. كيف تنسى النساء؟

نجمة، المرأة الجميلة الناضجة، ذات القوام الممشوق والجسم ذو الانحناءات المغرية، والأنف المستقيم والصدر الممتلئ، شعرها المجعد الأسود كالليل على البحر، لديه سمة غريبة، حيث يميل ليكون داكنًا في فصل الشتاء، بينما يكون ذهبيًا في فصل الصيف. في النهاية، استسلم. كان يعرف ماذا كانت تسعى إليه. بدت خائبة. "أنت تكرهينني"، بشفاه ترتعش بشكل غير طبيعي كالتريلو المجبر. "ولكنني بحاجة للتعافي. يجب أن أشفى منك" ومن خلال النافذة ظهر الشرطي "مرعي"، وهو يفضل أن ينادونه بالجنرال، بشعره الممشوق المدهون بالبريلكريم، ومرتديًا، على غير العادة عند رجال الشرطة في المخفر، بذلة عمل حريرية بيضاء وحذاء بكعب مرصع بأشرطة الرايون، وبعيون سوداء وشفاه مزرقة، ليسرق نغمة أخرى من فونوغراف الصباحات اليومية المكررة في قرية الحوايز. عبث في عبث وهواء في شبك. لا فائدة ترتجى من هذا الشعب التعبان مثل خرفان سارحة. تكلم المتحدث إليه كما لو كان غاضبًا. في

وقت لاحق، ظهر بوراوي عند الباب بجانب نجمة وبينهما ابنهما، وغنى على وقع أغنية مزود مستهلكة جدا لصالح الفرزيط، وهز وسطه أيضا، وكان هذا يثير حنق نجمة كلما رفع يديه على الإيقاع الصاخب وشرع في الرقص قدام الناس. شنوا الخرا هذا؟ ابتسم بشكل لا أبالي ولم ينظر اليها. ألف مرة حلمت بيك وانتي ولا مرة جيتيني. أعرف جيدًا ما تريدينه يا صغيرتي المغرية: القذارة والخيالات والتميمة السرية. ولكن لا تحاولي الذهاب أبعد مما كنتِ عليه من قبل إذا لم ترغبي في أن تنتهي الحياة بكارثة .أن تكوني في السابعة عشرة ليس أمرًا سهلاً، ولكن عندما تبلغين الثانية والأربعين، ويبدأ حوضك بالجفاف، ويتأخر دمك عن موعده، ستحترقين بنيران العذاب الأرضي أقرب بكثير على أية حال، لذا اتركيه الآن ودعيني أدعك جسدك، ودعي الموتى يدفنون موتاهم؛ كما في الحمام، من خلال بابنا السري مرة أخرى، هيا مرة أخرى لنعد لعام 1957، عام السفساري والسفور، أو ربما أكثر شوية، لأنني أنا هو الزعيم بورقيبة بشحمه ولحمه ومادته الشخمة ومنحبش السفساري ونحب عندي حصان. أنا ساخن ومغرم جدًا. الذين اختاروا البقاء بعد العودة إلى الوطن إما ذهبوا غربًا للعمل في المناجم مثل سي الفاضل، أو استقروا كمعمرين في مزارعهم الخاصة حيث يمكن زراعة الأرض. كان هو نفسه غير مستقر. بعد أن فعل ما فعله لمدة ثلاث سنوات، لا يستقر الإنسان، على الأقل ليس على الفور. لذا ذهب إلى الساحل. تمامًا كما يتم لعق رماله الرقيقة بلسان التيار البارد من القطب الجنوبي، بدأ الساحل في ابتلاع الوقت من اللحظة التي يصل فيها الشباب والبناويت. أدرك فجأة أنه ليس لديه أي شيء ليقدمه للحياة: الأرض قاحلة وعقيمة، ومالحة. لست أدري. فقط كنت أستمع بالصدفة وأنا أجتاز بطحاء موقف اللواجات، إلى "قليعي" وهو يضع كوعه على رفرف سيارته، وساقه اليمنى ملتفة على اليسرى، ويقول لمن حوله والله كيما نحكيلكم. الأمور مهيش هيا. ردوا بالكم عاد.

قاعدين يحرقوا في مقرات الأمن ومراكز الشرطة. ربي يستر. بس الغريبة أنه سي مرعي يتبختر في الأسواق ولا كاينو داري بحاجة. زعما يمثل علينا زعما؟

ولم يجب على سؤاله أحد، وانفضوا من حوله وهم يلمحون الشرطي "مرعي" يتقدم بخطى ثابتة من بعيد.

وقبل أن يتمكن أحد، أو حتى أن يفكر في الرد، اندلعت ضجة مفاجئة. دخل مرعي، مرتدياً بدلة حريرية بيضاء مذهلة وكعبا عاليا مرصعا بالفضة وأشرطة من الرايون الصناعي. انه يشحن الهواء بالتوتر مع بدء كشفه لكل مؤامرة مخفية.

ظهر بوراوي وهو ينظر إلى نجمة عند الباب، وابنهما واقف بينهما. انتشر صدى أغنية مزود مستهلكة في المكان بصوت صالح الفرزيط، لكن غضب نجمة بدا واضحا عندما بدأ زوجها بالرقص رافعا ذراعيه في الهواء وهو يهز عجيزته على الإيقاع ويصرخ بأعلى صوته نجمة.

حسنة

وقف في وجه الأفق، ونظراته لا تتحول عن نجمة. نعم إنه يحصي حركاتها ويعرف تحرّكاتها وعاداتها فكيف يفوته موعدها ذاك؟ هي تحسب أنها انسلّت عن الموكب العائد من الزردة، وتسلّلت إلى كوخ الشيطانة مباركة دون أن ينتبه إليها حطّاب. لقد رأته بأم عينها يلحق حسنة إلى غابة النخيل. وضمنت أنه سيقضي وقتا طويلا معها، حيث سيفترسها كما يشاء. مسكينة كيف ستتحمله وتتحمل همجيته. يبدو كوحش كاسر، ضبع جائع لا يتورّع عن نهش صيده. مهلا، فتلك الساحرة لا تبدو ملاكا، بل بالعكس تماما، هي جعلت من نفسها دمية مثيرة. كل معالم جسدها فاضت عن ملابسها الضيقة كأنها تتوسل وتطلب أن يلتهمها.

أي سرعة هذه التي يقضي بها حطاب وطره، أم أنه يلتزم بقاعدة الإحدى عشرة دقيقة؟ انسل من بين ذراعي حسنة. اغتسل في الجدول القريب ولبس ملابسه على عجل وانطلق راكضا تاركا خلفه حسنة منتصبة عارية تشاهد عجلته في المغادرة دون أن تنبس ببنت شفة.

بدت قرية الحوايز بعيدة على غير العادة. يجب عليه أن يصل الجهة المقابلة في وقت قصير جدا. اللعنة! هذه الرمال لا تساعده أبدا. تجعل أقدامه تغوص فيها بعيدا، تملأ حذاءه الرياضي وجواربه المتعرقة فتثير فيه حساسية تسبب له

الجنون. هو يعرف جيدا رمال الحوايز فلماذا تنكره الآن وتتنكر له وترفض مساعدته ليسرع. استقر الرأي عند حطاب على نزع حذائه الرياضي. على الأقل سيجفف الهواء أقدامه ولن تلتصق بها الرمال، ولن تثقل حذاءه الرياضي. ربط الفردتين ببعضهما وعلقهما على كتفه وركض. بدأت المسافة بينه وبين الجبل الرابض خلف الحوايز تتقلص. خطواته الواسعة التهمت الرمال بشراهة رياضي لا يتوقف عن الركض. رأى نجمة تدخل كوخ العجوز مباركة شيطانة البر الأغبر الذي تملأه بادعاءاتها كما تملأ الريح فم الأفق بالرمال والغبار المتطاير طوال السنة.

هو يعرف خداعها جيدا لطالما اتفق معها على أشياء معينة تسوقها لنجمة على أساس أنها توقعات وأحداث قادمة إليها ولا مناص من القبول. وكانت كلها تصبّ لصالحه. لم يكن يترك أي مناسبة كبيرة كانت أم صغيرة تمرّ دون أن يظفر بها. يعجبه نهش لحمها كل مرة ويستعذب طعمها المتجدد في كل موعد. امرأة جسدها سخي جدا فكيف يفرط فيه. كوخ التكازة مباركة معظمه مبني من الجريد، إذ توضع الجريدة حذو الجريدة وتربط فيما بينها بأسلاك حديدية قوية، فتتشكل قطعة متناسقة يسميها أهل الحوايز بالستّور. ويُربط الستّور والستّور إلى أعمدة غليظة تقطع من أشجار الزيتون المتناثرة هنا وهناك تحت أقدام النخيل فيتشكل المحيط الخارجي للكوخ، ويُسقف بستّور عريض يثبّت بالسنور المتّخذ من جذوع النخيل الميت بعد قطعه إلى نصفين وتسد الشقوق بالطين المعجون بألياف السعف درءا للبرد والهواء. أما من الداخل فقد غلفت حوائط الكوخ بقطع من فليج الخيام وقسم إلى قسمين. الجزء الأمامي من الكوخ فهو مخصص للمطبخ واستقبال الضيوف أما الجزء الخلفي ففيه تنام وفيه تنعقد اللقاءات السرية بأنواعها. ماكرة هي الشمطاء مباركة ومكرها يجلب أرفع الزبائن، ليس من الغرابة من شيء رؤية موظف دولة عال يجلس خاشعا أمامها ويرشق نظراته بمنديل الرمل أمامها دون أن تحيد عنه لحظة.

نسمات الهواء جعلت بعض السعف الناتئ عن السّتّور يصدر حفيفا غطى صوت خطواته ونشيج تنفسه جراء ركضه المتواصل. بحذر اقترب ناحية الكوخ وحرص على أن يكون ظله خلفه. هو يعرف جيدا الركن الذي تجلس فيه مباركة الغولة. كان في كل مرة تأتي نجمة عند مباركة إلا ويكون في أثرها. لقد أفشل جميع خططها وهددها أيضا تراها أتتمادى في إبعاده.

اللعنة عليك يا حطاب! تتركني من أجل امرأة متهدله لم تعد تنفعك. ماذا عندها وليس عندي؟ حتى السحر الذي عقدته له عند التگازة مباركة لم ينفع بشيء. أعرف أنها متواطئة مع نجمة. يا لها من أفعى تنفث سمّها. متى تترك لنا الفرصة لنعيش حبا كما عاشته هي؟ الأنانية مرض مزمن حقا. يجب أن أجد حلا قبل أن ينتفخ بطني. اللعنة عليكم أيها الشياطين.

دوائر الرمال لعنة تتسلّط عليه. كلّما خطا نحوك الرّمال تبعده إلى وجهة أخرى فلا يصل إليك. دوائر الريح تخطف بصره. كفيف أعمى لا يراك، لا عصا تدله ولا قبس نور تشير إلى طريق، ظلام غربيب يتلبسه، ليتحوّل إلى مجرد غراب ينعق من الجوع. اللعنة تغشاه من فوقه ومن تحته ومن أمامه ومن خلفه. لا باب ينفتح أمامه ولا طريق يعود منه. الضياع الشتات، الخوف الهرب لعنة الموت تطارده إلى ما لا نهاية. الرمل لا يكذب والمنديل مستو لا يميل. نامي مرتاحة البال، فلقد ألقيت حجر حظه خارج الحدود، وطريقه إليك دائما مسدود.

مباركة أنت فعلا ملعونة! كم قناعا ترتدين؟ لم يدهشني يوما أي دجل تفعلينه ولا كذبك الذي يحول الجبال إلى دوائر رملية، لكن اليوم، أبهرني ذكاؤك.

حقّا تريدين التخلص مني؟ عطاء نجمة أسخى من عطائي. ظننت أنك على العهد منذ تلك الليلة التي سمحت ليديك المتيبستين أن تجوسا في كل جسدي. ثمّ أيتها العجوز شربت من دمي الفائر

وتلمظت. دجلك يحتاج دماء شابة في عروقك. وكنت الواهب الكريم. اليوم تخططين لإبعادي. أجزم أن قطعة الأرض تلك التي وهبتك إياها نجمة ستجعلك في قمة الاجتهاد والإثارة، وليس صعبا أنك ستفكرين بقتلي فذلك لا يعجزك حتما. أنا أعرف معظم أسرارك، وأخاف مما خفي منها. لطالما لازمني شعور بعدم الأمان كلّما اقتربت منك. الآن أصبح تنبيها أحمر الضوء يلحّ عليّ. لن أخاف ولن أهرب. أنا أيضا سأدبّر لك تماما كما تفعلين.

نجمة أيتها الساقطة كيف تريدين أن تموتي؟ السّمّ هو الأنسب لك. أعرف قائمة مشترياتك كلها، ألست زبونة دائمة لحانوتي. أشكرك من أعماق قلبي. بحقنة سأوزع السّمّ على كل ما تقتنيه وسأضعها في علبة وأزودك بها كلما قدمت إلي. خلال أسبوع يتمكن منك وتذهبين غير مأسوف عليك. حطاب لي وحدي أتفهمين لن أتركه لك أبدا وهذه حرب بيني وبينك. سأهزمك فيها. سأخرج منها أنا فقط حيّة. لا خيار أمامك. استعدي لهجمتي عليك.

عزيزتي نجمة السخية فعلا أنت امرأة معطاء، ولعي الشديد بك تحول عندك إلى حقد. أعلم أنك لست شريرة، ولكنك لا تحتملين سوءا يطال ابنك. إذا تعملين على إبعادي. أنا أتفهّمك جدّا لدرجة أن انتقامي لن يطالك، بل سيكون مركزا على الساحرة مباركة. لن أغامر بفقدانك فأين أجد جسدا معطرا مثل جسدك. أنت دميتي التي لا أفرط فيها. لا تتهوري أكثرا حتى لا أقضي عليك بلحظة غضب وجنون مني.

يجيه الوهف يدبي ويحبي، سلال وعلال مع بهيم القايلة الهايم في البرّ ومداد ايده الراقد في الماجل والبير، يهز ساق تغرق ساق، يسواد وجهه يولي قريد ينقز بين النخل والجريد. نجمة إنت تهني والحطاب يعاني، يحلم ويعلّي والوهف يهزه ما يولي. هذا خط وهاكا خط وما يتلاقى خط بخط. كوني هانية، صفي النيّة.

حينما كادت الشمس أن تسقط خلف الجبال البعيدة من الجهة الغربية، وأصبحت للأشياء ظلال كثيرة تنبئ بهبوط الليل الوشيك تسللت ثلاثة أشباح من نواحي متفرقة وكلها تقصد قلب القرية التي تلهو بها دائر الرمال الصحراوية. حسنة بعد أن اغتسلت في الجدول وغسلت ثيابها. ظلت في الواحة تنتظر تجفيفها بحرارة الشمس وتلهت بالصعود إلى قمة نخلة حيث بقيت هناك تراقب المسارب علها تتفطن لكل عابر ولا يفاجئها وهي عارية فتكون طعما سهلا لرجال لا يعدو كونهم كلابا يسيل لعابها.

تأخرت نجمة عن قصد في كوخ التكازة مباركة. وانتظرت حتى تتمازج ألوان شفق المساء بخيوط الظلام ثم أسرعت ناحية القرية. كانت تفكر كيف تبرر غيابها الطويل لبوراوي زوجها. وضعت احتمالات كثيرة ووجدت أسلمها أن تتعذر بمرضها القديم الذي عاودها فجأة فاضطرت للذهاب إلى مباركة السحارة التي بقيت تعالجها وتقرأ عليها الأوراد ساعات طويلة. ثم أن تجهيز خلطة الأعشاب ليس سهلا فانتظرتها لساعات حتى تتوصل إلى الخلطة الصحيحة. من الجيد أنها اقتنت كيسا من الأعشاب المتنوعة من عند مباركة وهكذا لن يشك بها زوجها ولو للحظة. وشعرت بنوع من الامتنان لحطاب الذي لم يذع سرّها بعد في القرية. هي تدرك أنه يعلم أنها تكرهه وتدبر له لكنه لم يتكلم. فقط هددها وهذا ما يوجعها ويجعلها تفكر في إبعاده دون تردّد. البدايات الجديدة لا تحتمل وجوها قديمة، يجب عليها تخطيها مهما كان الاختبار صعبا.

الشيخ تراب

كان الشيخ "عياض بن تراب الحواوزي" الشهير باسم "الشيخ تراب"، هو كل دين ملة الإسلام بالنسبة لأهل قرية "الحوايز". فهو الفقيه العارف والمفتي القاضي وقارئ القرآن وعاقد القران وخطيب الجمعة وشاهد الجنازات ومفسر الأحلام. وهو في بعض الأحيان إن لم نقل معظمها، الطبيب المعالج والشافي من الأمراض والعلل، والراقي المعزم بالتعاويذ، وطارد الشياطين والأرواح الشريرة، والمؤاخي بين الجن العاشق والجسد المعشوق.

ها هو الشيخ تراب يجلس في ركن مظلل من مقر مُلكه وسلطانه: المسجد، محاطًا بأرفف مزدحمة بكتب قديمة يعلوها الغبار، وطيلسانات خضر قد بهت لونها، وعدد كبير من المصاحف مختلفة الأحجام والأغلفة، وأعواد مسك وعود وعنبر لم تعد صالحة للاشتعال، منتظرًا الشرطي مرعي، وهو يفرك مسبحته بين يديه، ويبدو عليه القلق. يرفع الشيخ رأسه عندما يسمع خطوات تقترب. يدخل مرعي بملابسه الرسمية المغبرة بعض الشيء، ويبدو عليه الانزعاج، ولكنه يحاول إخفاءه بتهذيب.

- مرعي (يدخل متسرعًا): السلام عليكم يا شيخ. طلبتني على عجل، ماذا هناك؟

- الشيخ عياض (مبتسمًا بلطف): وعليكم السلام يا سيد مرعي. تفضل، اجلس هنا في هذا الركن الهادئ. لدينا حديث مهم اليوم.

- مرعي: خيرا إن شاء الله. تفضل، أنا أسمعك.

- الشيخ عياض: أتحدث إليك عزيزي رجل الأمن مرعي الذي استدعيتك على عجل إلى ركني المنعزل في الجامع الوحيد في القرية حول نظريتي الأزلية عن "الجوجمة" و"الحضبة" فأقول لك إن الموضوع كله متعلق بكلمة واحدة، كلمة واحدة فقط تفسر كل شيء، وهي كلمة "الازدحام".

- مرعي: الازدحام؟ أي ازدحام يا شيخ؟ توا انت جايبني من المركز ومخلي شغلي عالصباح لحتى تحكيلي على الازدحام؟ شنية يا شيخنا، نحن في العاصمة وما فيباليش؟

يحتج الشرطي بتهذيب يليق بمقام إمام جمعة الحوايز، ولا يليق بشرطي مثله يمثل هيبة الحكومة في المنطقة برمتها، ويقوم ليخطو خطوة لمغادرة المكان، غير أن الشيخ يستوقفه بكل لطف، ويقدم له كرسيا بلاستيكيا أبيض اللون ويطلب إليه الجلوس ليتقاسما كأسين من الشاي الأخضر بالنعناع.

- الشيخ عياض (شارحا وجهة نظره): الازدحام اللي في مخاخنا يا مرعي ياخويا. ركز معايا شوية، ربي يهديك!

- مرعي (يتردد قليلًا، ثم يجلس على الكرسي البلاستيكي): يا شيخ. لقد جئتك كما طلبت أنت، ولكن بربك قل لي، ما هي هذه "الجوجمة" التي تتحدث عنها؟ لقد اعتقدت أن الأمر يتعلق بأمر أمني عاجل، أو مشكلة عويصة قد حصلت، أليس كذلك؟

- الشيخ عياض (بهدوء وهو يصب الشاي الأخضر): لا تقلق، يا أخي مرعي، يا أيها الحكومة. ستفهم كل شيء في وقته. المشكلة تكمن في كل تلك الكلمات، وخاصة كلمة واحدة منها: "الازدحام".

- مرعي (مندهشًا، يرفع حاجبيه): يا شيخ، يا شيخ! نحن في الحوايز يا شيخنا، ولسنا في شوارع العاصمة! أنا ألاحق مشاكل أخرى هنا، وليس لدي وقت لمناقشة زحمة المرور.

- الشيخ عياض (يضحك برفق): اصبر، اصبر يا دولة، دعني أوضح لك. (يواصل حديثه) الازدحام الذي أعنيه ليس هو الازدحام في الشوارع والطرقات. إنه ازدحام الأفكار، ازدحام النفوس، ازدحام الأرواح. "الجوجمة" هي عندما تتكدس الأمور في داخلنا ولا تجد طريقًا للخروج. إنها أزمة الروح، يا ولدي.

- مرعي (يحك رأسه متحيرًا): طيب، سأمشي معك يا شيخنا، ولكن اشرح لي كيف سيؤثر هذا على الأمن والأمان في القرية؟ وما علاقة هذا كله بالجوجمة" وتلك "الحضبة" التي تتحدث عنها؟

- الشيخ عياض (وهو يرفع إصبعه محذرًا): هنا يكمن السر، يا سيد مرعي. إن "الجوجمة" تؤدي إلى الغضب، والغضب يؤدي إلى الفوضى. و"الحضبة" هي النتيجة المتوقعة. عندما تهدأ الأنفس، تهدأ القرية. إنها ليست مسألة قوانين أو قوة، بل مسألة نفوس مكتظة تحتاج إلى فسحة. "الجوجمة" هي الازدحام داخل أفكارنا، أما "الحضبة" فهي الازدحام في الخارج. خارج أنفسنا. يعني مع غيرنا. مع الناس. هل فهمتني؟

(يصمت الشيخ للحظة لزيادة تأثيره على ضيفه، وينظر في عيني مرعي وكأنه يبحث فيهما عن فهم أعمق لديه).

- الشيخ عياض (مكملا حديثه ومظهرا تبرمه): وأنا أكره الاثنين مع بعض. أكره الجوجمة" وأكره "الحضبة". أكره كل واحدة منهما أكثر من الأخرى. أكره "الجوجمة" لأنها تسبب لي الصداع، وأكره "الحضبة" لأني لا أطيق تكالب الناس على بعضهم فيكثر لغطهم وتخرج منهم روائح عرقهم المنفرة. ولكن يمكن القول إنني رغم ذلك قد اكتشفت كلمة أخرى، أو نظرية أخرى، كما يقولون في التلفزيون بعد نشرات الأنباء، فبعد "الجوجمة" و"الحضبة" اكتشفت شيئا مهما أيضا اسمه "الهدنة"!

- مرعي (ساخرا): شيء عظيم فعلا شيخنا! لديك ثلاث نظريات إذن!

- الشيخ عياض (منتصرا): بل قل لدي نظرية واحدة بثلاثة رؤوس.

- مرعي (مستسلمًا): حسنًا، شيخنا. أنا معك، وأحاول أن أفهمك. لكن كيف تطبق هذه النظرية ذات الرؤوس الثلاثة على عملي؟ أنا شرطي، أتعامل مع الناس بالعصي والقوانين والزجر والعقاب والسجن إذا تطلب الأمر، وليس بالأفكار.

- الشيخ عياض (بهدوء): القوانين تضبط الأجساد، لكن النفوس تحتاج إلى شيء أعمق. جرب أن تمنحهم بعض المساحة، بعض الهدوء، وسترى كيف يتحول غضبهم إلى سلام تام. هذه هي "الهدنة" الحقيقية، أن تهدئ النفوس قبل أن تضبط الأجساد. الحل غالبا يكون هو "الهدنة".

- مرعي (وقد بدأ يظهر عليه الضيق، وينظر في ساعة يده): أرجوك لا تعقد الأمور، يا شيخ. ارحمني قليلا، فلدي عمل كثير اليوم.

- الشيخ عياض (بصوت هادئ، لكنه يحمل نبرة تحذير): يا سيد مرعي، يا حكومة! أنا في الحقيقة لديّ رؤيا، أو بالأحرى، لدي استشراف لما قد يحدث في قريتنا قريبًا. وهذا أكيد شيء يهمك، إن لم يكن من صميم عملك. أليس كذلك؟

- مرعي (مستفسرًا): رؤيا؟! يا ساتر يا رب. لكن ماذا تقصد؟ أية رؤيا؟

- الشيخ عياض: إنها ليست رؤيا بالمعنى الحرفي للكلمة، بل هي إدراك عقلي منطقي مني لما يحدث خلف الأبواب المغلقة. الحب المحظور ينمو في الظل يا مرعي، والأرواح المليئة بالكراهية تُشعل النيران. حسنة، الفتاة الجميلة ذات اللون الأبيض المشع

والشعر الذهبي، تلتقي سرًا بذلك العملاق الأهبل الوسخ، حطاب. نجمة، المرأة ذات المؤخرة الشيطانية والعياذ بالله، تتآمر مع واحدة مشبوهة تأتينا من الساحل على فعل أشياء شنيعة لكني لا اعرف ما هي. أما تلك المشعوذة النصابة مباركة، تلك العجوز القادمة من دهاليز جهنم الحمراء، فهي أم المصائب كلها وأم الحروب.

- مرعي (مذهولًا): ماذا تقول يا شيخ؟! حسنة؟ نجمة؟ مباركة؟ صبوة؟ هذا مستحيل. مستحيل. القرية صغيرة، كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا دون أن نعلم؟

- الشيخ عياض (بتنهيدة عميقة): أحيانًا، يا مرعي، الغضب المكتوم والغيرة الدفينة هي التي تُشعل الحرائق، وليس النار نفسها. نجمة، زوجة بوراوي، ليست بعيدة عن هذه الفتنة. تلك المارقة صبوة أيضا. أعوذ بالله من غضب الله!

(ينظر مرعي إلى الشيخ بقلق، مدركًا أن الأمر قد يكون أخطر مما يتخيل. والشيخ يبتسم بهدوء وهو يرتشف قدح الشاي الأخضر، بينما يبدو مرعي غارقًا في التفكير، وكأنه بدأ يستوعب للتو ذلك الدرس البليغ الذي يحاول الشيخ إيصاله).

- الشيخ عياض (بلهجة المنتصر): هل علمت يا حضرة الحكومة بالمواجهة العنيفة التي حصلت هنا في المسجد عقب صلاة الجمعة؟

- مرعي (بصوت منخفض): يا شيخ، الأمور تزداد سوءًا. نعم، لقد سمعتُ أن بوراوي قد جهّز رجاله، ويبدو أنه يخطط لشيء خطير.

- الشيخ عياض (بقلق لا يستطيع إخفاؤه): يا مرعي.. يا سيد مرعي.. إذا لم نُطفئ هذه "الجوجمة" في قلوبهم، وإذا لم نحاصر هذه "الحضبة" التي ستحصل، ستحترق القرية بأكملها،

وسنحترق نحن جميعا. عليك أن تتدخل قبل فوات الأوان. ألست تمثل السلطة هنا؟

- مرعي: ولكن كيف؟ بوراوي رجل قوي، وحطاب شخص جاهل قد يقودنا إلى الكارثة. ماذا أفعل؟

- الشيخ عياض: الحضبة يا مرعي، الحضبة. حاول جمع الأطراف المتنازعة، دعهم يجلسون معًا. إذا استطعنا إقناعهم، ربما نتجنب الكارثة. فلتحذر أهل القرية من الغضب والغيرة وادعاء الشرف. حاول أن تسعى جاهدا لتهدئة النفوس قبل أن تشتعل الأحقاد يا مرعي!

(يصمت الشيخ فجأة، عندما يلاحظ ظلال شخص آخر يقف خارج المكان يتنصت. يشير إلى مرعي بعينيه وبحركة خفيفة من يديه على سبيل التنبيه والتحذير. وبوثبة قط هادئ حذر، يغادر مرعي كرسيه ويختفي بسرعة خلف الحائط الفاصل بين مجلس الشيخ ومدخل قاعة الصلاة في المسجد، ولكنه سرعان ما يعود وقد أمسك برقبة قليعي سائق سيارة الأجرة الوحيد في القرية، دافعا إياه أمامه وهو يرغي ويزبد).

- مرعي (يدخل ممسكا بخناق قليعي ويفلته ويدفع به قدام طاولة الشيخ): تفضل يا شيخ.. انظر ماذا وجدت! لقد كان هذا المحترم يتلصص علينا طوال الوقت.

- قليعي (مذعورا): لا والله يا سيدي لا رأيتكم ولا سمعتكم إلا الآن سيدي. لقد أتيت لكي أخبركم بشيء مهم سيدي. لو أذنتم لي طبعا يا سيدي.

- الشيخ عياض: دعه يا سيد مرعي يقول ما جاء من أجله، واجلس مستعيدا هدوءك. أكمل شايك وهات لنسمع ما سيقوله لنا سائقنا الهمام. تفضل يا قليعي وكلنا آذان صاغية.

- قليعي: ربي يخليك سيدنا الشيخ ويعلي مقدارك.

- مرعي (وقد نفد صبره): تكلم وقل ما عندك، باختصار ووضوح وبلا لف ودوران. أحذرك! السجن ينتظرك إن لم تفعل!

- قليعي: حسنا حسنا.. لقد سمعت شيئًا مهمًا وقلت ربما سيكون مفيدا أن أنقله لكم خاصة بعد الذي حدث في القرية. فقبل أيام قليلة، كانت صبوة ونجمة تتحدثان في سيارتي وأنا أنقلهما إلى "غمسيس" على الساحل، عن "التخلص" من شخص ما. لم أكن أظن وقتها أن الأمر يتعلق بجريمة لذلك لم أركز كثيرا على حديثهما وعن ذلك "الشخص" من يكون.

- الشيخ عياض (بغضب): نجمة! آخ يا نجمة، يا أم المصائب جميعها. ربي ياخذك ونرتاحوا.

- مرعي (بحذر): لكن، لماذا تُتهم نجمة عند كل مصيبة؟ ألم تكن هي مجرد امرأة بريئة وعاقلة ومشهود لها بذلك عندنا جميعا؟

- الشيخ عياض: ولكن جمالها شيطاني يفقد الرجال عقولهم ويدفعهم الى فعل أشياء لا يرغبون بفعلها لكنهم يفعلونها استرضاء لها.

- مرعي: لا يا شيخ، علينا ألا نتسرع في إطلاق الأحكام. العدالة صعبة والظلم محبوب الجميع. وأنت سيد العاقلين ومنك نتعلم الحكمة يا شيخ.

- الشيخ عياض: وما هي النتيجة من التريث حسب رأيك؟ أخشى أن نفقد تلك الصبية البيضاء الشقراء الجميلة البريئة الصغيرة وحيدة أبيها المسكين!

- قليعي (وكأنه يهمس): ربما كانت حسنة مجرد ضحية بالخطأ. سمعت نجمة تقول لصبوة يومها إنها تريد التخلص من "حمل ثقيل" يهدد سمعتها.

- مرعي (بدهشة): إذن، هل تعتقد أن حسنة لم تكن المستهدفة؟

- قليعي: تمامًا. أظن أن النار كانت مُعدة لشخص آخر.. ربما الحطاب؟ لقد سمعت أحد القرويين يقول أن بوراوي هو من أشعل النار بأمر من نجمة!

- مرعي: آه من بوراوي وغيرته التي تقتل. أظنه وراء كل هذا التخطيط.

- قليعي: لا، لا، أراهن يا سيدي أن صبوة هي التي خططت لكل شيء. إنها غريبة عن القرية ولها عادات غريبة ولا يمكن الوثوق بها، سيدي.

- الشيخ عياض (برزانة): كفى يا قوم كفى! لا تلقوا التهم جزافًا. علينا الانتظار حتى تنكشف الحقيقة.

- قليعي (موجها كلامه لمرعي): لقد رأيت الشر في عيني نجمة، يا سيدي. إنها ليست وحدها الآن.. صبوة تدفعها نحو هاوية لا عودة منها.

- مرعي: لكن، يا شيخ، ما الذي يمكننا فعله؟ لا أستطيع التحرك بناءً على الشكوك وحدها.

- الشيخ عياض: إذا لم نفعل شيئًا، ستشتعل النار في القرية قريبًا. صبوة تشعل الفتنة، ونجمة على وشك ارتكاب خطأ لن يمكن إصلاحه.

- مرعي (بقلق): سأراقب الوضع عن كثب وأبدأ التحقيقات، لكنني بحاجة لأدلة حقيقية.

- الشيخ عياض (بحزن عميق): قلت لكم.. "الجوجمة" تؤدي إلى الفناء. عندما تملأ القلوب بالحقد، فإن النار تأتي على الأخضر واليابس. قلت مرارا وتكرارا، ولكن، للأسف، لم يُصغِ إلي أحد.

- مرعي (متأثرًا): ولكن، هل فات الأوان الآن، يا شيخ؟

- الشيخ عياض: ربما... لكن علينا الآن أن نبدأ من جديد، أن نعلم الناس كيف يُطفئون "الجوجمة" قبل أن تشتعل النار مجددًا.

....

نهض الرجال الثلاثة نهضة رجل واحد، ويمموا صوب التلال على مشارف الحوايز أين يؤدي الطريق العام إلى السهوب التي تقام فيها طقوس الزردة السنوية.

كان مرعي أول الواصلين (لأنه كان أسرع من الشيخ، ولان قليعي ما كان يتجرأ أن يتقدم الفريق) فوجد أن رجاله قد سبقوه إلى مكان الحادث. اضطر أن يقول (بصوت عالٍ) كنوع من إثبات الوجود ولو بشكل متأخر: ابحثوا في كل مكان! لا يمكنه أن يكون قد اختفى بهذه السهولة. فقال له أحد رجاله: سيدي، وجدنا هذا القميص الملطخ بالدماء بالقرب من عين الماء. يبدو أنه يخص الحطاب. فرد عليه مرعي على الفور: وكيف عرفت ذلك بهذه السرعة أيها الشرطي الشاطر؟ لكنه بالرغم من ذلك أخذ ينظر إلى القميص ويفكر مليا في جميع الاحتمالات. هل هرب لأنه مذنب، أم أن أحدهم يحاول الإيقاع به. وفي هذه الأثناء، ظهرت العرافة مباركة من بين الظلال، وهي تهمس بصوت غامض: ليس كل ما يلمع ذهبًا، يا مرعي. النيران لا تحرق إلا ما هو مكتوب له أن يحترق. الحطاب ليس كما تظن. سألها مرعي (بنظرة حادة): ماذا تعنين يا مباركة؟ هل تعرفين شيئًا عن الحريق؟ فأجابته بابتسامة أكثر غموضا: الكل لديه أسراره يا ولدي، والجميع هنا مذنب بطريقة أو بأخرى. لكن النار، هي التي ستكشف الحقيقة.

....

الشيخ عياض (يرفع عصاه عاليا نحو السماء ويصرخ بصوت جهوري): اللهم خذهم جميعا بصعقة واحدة. اللهم إنهم قد

أفسدوا في الأرض فاستحقوا العقاب. اللهم لا تبقها حجرا على حجر. آمين يا رب العالمين!

(يتدافع أهل القرية لمحاولة إطفاء النيران، بينما يقف مرعي وقليعي والشيخ تراب على التل، يراقبون الكارثة التي حذّر منها الشيخ ولم يتعظ منها الشرطي).

ورقة من كتاب السِحْر البابليّ

أنتَ أردتَ أن ترى طالعكَ فكانت
النجوم حراساً لساحة سجنك الخلفية
على خارطة البروج أمامك
حيث الكواكب تتمتم ببقايا
قوة العزم من لغاتها البابلية
مثل عظمات المشعوذين
ومبطلي السحر المدعين
لقد كنت على حق في خوفك
من صوت العظام وهي تزمجر وتصيح،
وكم يمكن للأذن أن تسمع بوضوحٍ
همسَ العظام المتمددة في
الجسد الساخن الحيِّ
وحدك لم تكن بحاجة إلى حسابِ

درجات حظك المتعثر في برجِ الحَمَل.
مكتوبٌ في لوحِ القدر أنه لا شيء مؤكد
وأنه لا شيء هناك أكثر من وجه مشوه
حسب ما يقوله كتاب السحر البابلي.
كمْ عمقاً مطلوبٌ تحت الجلد
لكي يجعل أيَّ مشتغل بالسحر
يصَفِّر باختطافٍ ودهشة؟
وحدك كان عليك النظر
في المعنى الخفي لأقرب الوجوه
المستلة من خزانة ملابسك
أو المرمية خارج مائدتك
أو الملقاة تحت الشمس
أو تحت القمر
أو شجرة التوت
لكي ترى أمك أو ترى أباك
أو تراني أنا
حاملا إليك مصيرك كله.

نجمة وحسنة ومباركة

بينما تستمر نجمة في ثرثرة النساء وهذرهن بتركيز شديد، تحاول تجسيد جمالها وقوتها وثباتها في وجه الأمواج العاتية. ليس أمواج هذا البحر الذي أمامها، بحر "غمسيس" المدهش، فحسب، بل أمواج "الحوايز"، تلك القرية الظالمة نفسها وأهلها وحتى زوارها. القرية الملعونة المسخوطة، كما قال الشيخ تراب عنها ذات مرة، وسمعته بأذنيها وهو يقول ذلك لزوجها بوراوي بدون أية مناسبة. تستمر في الحديث مع "صبوة"، الأربعينية المتغنجة الرشيقة بنت المدن الساحلية، بدقة وحرفية، محاولةً إيصال رسالة معينة من خلال ابتسامتها. تشعر بالسعادة والراحة عندما تقترب منها، تلمسها، تداعبها، تشم رائحة إبطها المتعرق، فهذا هو هروبها الوحيد من الواقع المرير الذي وضعت نفسها فيه.

في الوقت نفسه، يستمر "الأمجد" أو "لمجد" في مشاهدة البحر بإعجاب ودهشة. إنها أول مرة يرى فيها البحر ويسمع خرير أمواجه، وأول مرة يعرف طعم الصيف الحقيقي بعيدا عن شتاء الحوايز الذي لا ينقضي. يذهب ناهضا من رمال الشاطئ ويحضن تاتا "صبوة" بقوة وحنان ويقبلها من خديها ويشكرها لأنها هي من أقنعت والده بوراوي بالسماح لهم بالمجيء نحو هذا الساحل المزدحم بباعة المأكولات السريعة والمرطبات، وبالرواد من كل مكان. يستمتع بجمال الطبيعة وقوتها، ويشعر بالهدوء والسكينة عندما يكون بجانب أمه. يعلم أنها تحتاج إلى هذه

اللحظات للتخلص من الضغوط اليومية والهروب من الواقع الذي يأتي ثقيلا متوترا من جهة أبيه.

وبينما تستمتعان بالمنظر الخلاب والهدوء المحيط، تشعران، نجمة وصبوة، بالتواصل العميق والتفاهم المتبادل. تعرفان أنهما تحتاجان بعضهما البعض للبقاء قويتين ومستقيمتين في هذا العالم الصعب. ورغم الفوارق في العمر والمرتبة والبيئة والتعليم، إلا أنهما أصبحتا صديقتين بسرعة البرق، منذ ثاني لقاء لهما في حانوت حسنة، حيث كانت خالتها صبوة في زيارة لها، مثل كل شهر، عندما تأتي وتأخذ معها ابنة أختها لتقضي الويكاند معها في المدينة، حيث حياة السهر والفنادق الراقية والرقص والمشروب والدخان والحشيش والعري الفاحش. لكنها، وبشكل غير مدروس، جاءت بنجمة وولدها بعد أن رفض والد حسنة أن ترافق خالتها هذه المرة بحجة تراكم العمل في الحانوت وقرب وصول بضاعة الموسم الجديدة.

وبينما هي مع صبوة في آخر انسجام، وابنها يلعب بالرمال أمامها بكل استمتاع وسلام، تحاول أن تنسى كل شيء يتعلق بالحوايز ومشاكلها وتتركه وراءها لتعيش وقتها كله في وئام داخلي سامحة للشمس أن تخترق مسامات جلدها الذي لطالما تغزل به الكثيرون ممن رأوها وحلموا أن يروه. نقلت لها حسنة ذات يوم ما دار من حوار بين أبيها وبين الشيخ عياض بن تراب في حانوتها وكان الحديث كله حولها وحوا جمالها. كان الشيخ يثني على زوجك وعائلتك وعائلته ويقول عنك أنك امرأة شريفة ومحترمة "بس ترمتها كبيرة"! بينما ذهب والدي محرجا في اتجاه أن يمدح في سلوكك مع الناس في القرية كان الشيخ يعقب قائلا "بس ترمتها كبيرة"!

وبينما نجمة وصبوة تضحكان وتشعران بالأمان والحماية عندما تكونان معًا، تعلمان في الوقت نفسه أنهما ستواجهان تحديات ومشاكل لا تخطر على البال قد تأتي في طريقهما معًا.

وبينما هما مستمرتان في الجلوس على الشاطئ، تراقبان الصبي الجميل لمجد يلعب بالرمل بعيدا، تسترقان قبلة سريعة عبر الشفاه المرتجفة الخائفة، مع ابتسامة سعادة خفية متواطئة، تدركان أنهما ليسا وحدهما في معركتهما. قالت لها دعينا في ملابسنا ولا داعي للمايوهات. في الحقيقة أنا أخجل وغير متعودة إطلاقاً على إبراز جسمي، وأشكرك أنك اشتريت لي واحدا لكن والله لم يكن ذلك ضروريا فأنا لن ألبسه وأنزل به البحر أمام أعين هذه البشرية. ضحكت صبوة. أنا أيضا لن أنزل البحر إذن. يا حرام، كنت أتشوق لرؤية جسدك الجميل تحت نور الشمس. أنت جسدك أجمل. ألست أصغر مني؟ أووه يا روحي، هل سنعود إلى هذا الموضوع؟ وسمحت لها بقبلة سريعة أخرى من شفتيها. حسنا، عندما نعود إلى شقتي في المساء، سنلبس مايوهاتنا الجديدة رغم أنف البحر والمبحرين، ونجعل من سريري رملا لسواحل "شط الأميرة". ضحكتا بسعادة. هناك العديد من الأشخاص الذين يعانون ويكافحون في هذا العالم، ولكنهم يجدون القوة والأمل في بعضهم البعض. تعلمان أنهما يمكنهما تجاوز أي شيء معًا، وأنهما ستمعنان في محاربة الصعاب والتغلب على التحديات.

وبينما تستمران في الجلوس على الشاطئ، تتأملان في المستقبل والأحلام التي ترغبان في تحقيقها. تعلمان أن الطريق قد يكون صعبًا ومليئًا بالتحديات، ولكنهما مستعدتان لمواجهتها بقوة وإصرار. تعلمان أنهما ستستمران في النمو والتطور معًا، وستعملان بجد لتحقيق أحلامهما وتحقيق النجاح.

وبينما هما كذلك، إذ تتذكر نجمة المكان حيث اللقاء الأول ما بينهما وفيه انجلت خيوط العلاقة المتينة القادمة: حانوت حسنة. صبوة تدخل الحانوت وهناك. تجد نجمة تشتري بعض الحاجيات.

صبوة (بصوت مرح): آه، هذه الحانوت مليئة بالحياة. هل أنتِ نجمة؟ سمعت الكثير عنكِ.

نجمة (بتحفظ): نعم، ومن تكونين أنتِ؟

صبوة: أنا صبوة، خالة حسنة. ألم تخبرك عني؟ جئت من "غمسيس" تلك المدينة الساحلية الجميلة. سمعت أنكِ وزوجكِ من أعمدة القرية، ويسعدني التعرف عليكِ.

(تبدأ صبوة ونجمة في تبادل الحديث، وسرعان ما تشعر نجمة براحة غير متوقعة تجاه صبوة، خاصة بعدما تبدأ صبوة بالإطراء عليها وعلى مظهرها).

صبوة (بصوت منخفض وهي تنظر في عيني نجمة): لماذا لا تأتين معي إلى الساحل؟ بعض الهواء النقي والمياه الزرقاء ستريحك من كل هذه الفوضى.

نجمة (مفكرة): فكرة مثيرة، لكن، أليس الوقت مبكرا لذلك؟ نحن بالكاد نتعرف على بعضنا. ثم هنالك بوراوي.. زوجي الذي لن يسمح لي مطلقا بالسفر.

صبوة (بابتسامة ماكرة): دعيني أنا أتحدث معه. الرجال يمكن إقناعهم دائمًا إذا عرفتِ كيف تُمسكين بالخيوط. وضحكن ثلاثتهن دفعة واحدة بصوت عال سنعه كل المارة في الطريق العام.

وبينما تستمران في الجلوس على الشاطئ، تتعهدان بأن تكونا دعامة لبعضهما البعض، وأن تدعما بعضهما في كل خطوة تخطوانها. تعلمان أنهما ستواجهان تحديات وصعوبات في الطريق، ولكنهما ستستمران في الوقوف بجانب بعضهما البعض ومساعدة بعضهما البعض في تجاوزها.

وبينما تستمران في الجلوس على الشاطئ، نجمة وصبوة، تعلمان أنهما لن تستسلما أبدًا ولن تتخليا عن أحلامهما.

ستستمران في النضال والعمل الجاد لتحقيق أهدافهما، وستظلان متمسكتين بالأمل والإيمان في المستقبل.

وبينما تستمران في الجلوس على الشاطئ، تعلمان أنهما ستواجهان الصعاب والمشاكل، ولكنهما ستستمران في النمو والتطور وتحقيق النجاح. ستظلان متمسكتين بالأمل والإيمان، وستستمران في بناء حياة سعيدة ومليئة بالمغامرات والإنجازات.

وبينما هما تجلسان على رمال شاطئ البحر والأمواج تتلاطم برفق، والشمس تغرب في الأفق، تشربان من زجاجة عصير صنعته وأحضرته صبوة معها سرًا لهذه المناسبة، قالت لها صبوة: هذا ما كنت بحاجة إليه، أليس كذلك؟ هواء البحر يطهر الروح. فتجيبها نجمة بتنهيدة: نعم، لقد نسيت كم هو جميل الشعور بالحرية بعيدًا عن كل تلك الفوضى والكآبة في القرية.

صبوة (بغمزة): ولكن يا عزيزتي، يبدو أن هناك ما يثقل كاهلك. لماذا لا تفضفضين لي؟ أنا أستمع جيدًا.

نجمة (بتردد، ثم تبدأ في البوح): إنه ذلك الوحش حطاب.. لا أستطيع التخلص منه. إنه لا يتوقف عن ملاحقتي، وحتى الآن، ما زلت أشعر أنني قد أفقد كل شيء بسببه.

صبوة: إذن، لماذا لا تُنهين الأمر؟ هناك طرق عديدة للتخلص من الرجال المزعجين.. خاصة عندما يكونون أغبياء مثل حطابك هذا.

نجمة (بصوت خافت): أفكر في ذلك، لكنني خائفة. إذا حدث شيء له، ستتحول أصابع الاتهام إليّ.

صبوة (تقترب منها، وتهمس): أنا هنا لأساعدكِ. سنخطط للأمر بعناية.. لا شيء سيربطنا به. إنه القضاء والقدر.

نجمة: اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، بل اللطف فيه.

صبوة: آمين آمين.

وبينما هما غارقتان في هذه الأجواء الحميمة من العشق والنغم والعطر الفواح والأمل المشرق بالحرية والسعادة، كانت "الحوايز" تحترق عن بكرة أبيها.

عندما تترك حسنة حانوت أبيها للذهاب إلى البيت، ستكون لديها غرفتها الخاصة، ولكن في الوقت الحالي، تشارك صبوة أمها غرفة واحدة، كما يجب أن يكونا قد فعلتا عندما كانوا أطفالًا. لا يمكن لحسنة أن تسمع الكلمات من خلال الجدران، ولكنها كانت تسمع أصواتهما وهما يتحدثان بدفء حتى وقت متأخر من الليل. "والآن، تعيش أمي بشكل جيد وهي عند الله أكيد". غالبًا ما تتنزه مع صبوة، خالتها وما تبقى من ذكرى أمها، في الجبل موسم الزردة، فوق العشب الجديد موسم الربيع، وحتى العشب الأخضر الأكثر خضرة بعد حريق الصيف الماضي. تجلسان على المنحدر، على وسائد من البراكين، تتحدثان، أو لا تتحدثان، في المدينة الساحلية التي تأخذها صبوة إليها كلما سنحت الفرصة لذلك، بينما يلعب عالم صغير من الشبق والأحلام في أسفل قعر الحياة.

لا يوجد شيء يحتاجه المرء أكثر من أخت.

لكنها كانت بلا أخت، وجاهدت صبوة كثيرا لكي تكون الأخت، ولكن كل ذلك لم يكن ينفع حسنة التي بقيت رغم كل شيء وحيدة ومهملة.

الشعور بالذنب يجعل الألسنة تتعثر. يشعر بعض الناس الذين يتذكرون جمالها عندما كانت في سن السادسة عشر بالرعب من تدهورها الحالي. سيعطونها الإشارة إذا رأوها في الشارع ثم ينظرون بسرعة في اتجاه آخر، يبحثون عن شيء يلهيهم عن الماضي الذي لعبت فيه مصيرها.

تنظر بعين مغمضة إلى العالم الذي
يحمل في عينيها إشارات الضياع
في الحشود المليئة بالكذب والعنف
تبحث عن لحظة تصقلها لأجل الرقي
صوتها يهمس بسحر واتساع
لتعبيرات تفوح بالجمال الغامض
لا تريد كما تعودت منذ نشأتها
أن تكون الكلمات والعبارات مثالية
بل تريدها مجوهرات فريدة من نوعها
تروي قصة روح قلقة يعذبها الألم
ستظل تنتظر ساحر الكلام الذي
قد يكون بلا اسم لكنها تحتاج إليه
مثل شعاع ساطع في حياتها المظلمة
يا ساحر اللغة العزيز أطلق عنانك
أبدع في غزو روحي بتألقك الكبير!

في تلك الليلة، بدت القرية وكأنها تذوب في الرمال، وقد اختفت حدودها بفعل الرياح المتصاعدة. خرجت حسنة، غير قادرة على النوم، إلى الخارج. كانت السماء فوق قرية الحوايز مليئة بالنجوم، أكثر إشراقًا مما رأته من قبل.

امتدت الصحراء، الشاسعة والقادرة على كل شيء، إلى ما وراء الأفق، وكانت كثبانها الذهبية تهمس بأسرارها للرياح التي كانت تهدهد الحوايز. كانت القرية، العالقة بين سكون رمالها التي لا تتحرك، وبين إلحاح التغيير الوشيك، تقف ساكنة في ضباب الظهيرة وقد تلاشى الأذان منذ فترة طويلة، وصمت ميكروفون

المسجد الوحيد، تاركًا هدوءًا مخيفًا كما لو أن الأرض نفسها حبست أنفاسها في انتظار ما هو آتٍ.

جلست نجمة وحيدة في فناء منزلها، وعيناها تتتبعان الشقوق الباهتة في جدران غرفتها التي بدت وكأنها تعكس التصدعات في حياتها. كان الهواء يفوح برائحة الخشب المحروق والغبار، خليط كان يريحها ذات يوم لكنه الآن يجلب لها حزنًا لا يمكن تسميته. مسحت بأصابعها على قميص ابنها أمجد الصغير المعلق على الحبل ونسيجه لا يزال طريًا من الصابون الذي كانت ترغيه بيديها.

همهمت تنادي ابنها: "أمجد"، وصوتها ضعيف كما لو كانت تختبر وجودها. لكن الصبي لم يكن هناك، بل في الخارج، يلعب بالقرب من البئر، وضحكاته ترن بصوت خافت خلال السكون.

كان بوراوي قد غادر في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم للعناية بالحقول. كان صوت أزيز الجرار الزراعي البعيد هو الدليل الوحيد على عمله، على الرغم من أن الأرض الجافة والقاحلة لم تعطِ إلا القليل في المقابل. كانت نجمة معتادة على غيابه - جسديًا وعاطفيًا- وما كان يربطهما معًا كان رقيقًا مثل لمسة الريح على خدها وقاسيًا مثل لدغتها.

الزمان: ليلة من ليالي الخوف والظنون.

المكان: كوخ التكازة مباركة وهي تشعل شموعًا، وتقرأ تعاويذ غامضة، بينما تجلس نجمة وصبوة أمامها. الليل يسدل ستاره، والهدوء يلف المكان.

مباركة: الحريق قادم يا بنات، لكن النار ليست دائمًا عدوة. أحيانًا، هي التي تنقي وتطهر.

نجمة (مرعوبة): هل تعنين أن هناك كارثة ستحدث؟

صبوة (بابتسامة ماكرة): ليس إذا كنا نحن من نشعل النار. أحيانًا عليكِ حرق الماضي لتبدئي من جديد.

مباركة: آه، يا بنات، لقد قلت وكررت من قبل. الحب، الغضب، والغيرة.. جميعها وقود للدمار. حذار فالنار ستلتهم القرية.

نجمة (خائفة): لا أريد ضحايا، لا أريد ضحايا.

عندما بدأت الشمس في الغروب، ظهر ظل عند البوابة. كانت مباركة منحنية على عكازها، وشالها الممزق ملتصق بكتفيها النحيفين. كانت عيناها الحادّتان اللتان تلمعان مثل الطائر، تتفحصان الفناء كما لو كانتا تزنان الطاقة الموجودة بداخله.

"هل اتصلت بي يا نجمة؟". كان صوت مباركة يحمل خشونة القرون.

أومأت نجمة برأسها. كانت قد طلبت من مباركة أن تأتي، لكن منظر المرأة العجوز الآن جعل صدرها يضيق. كان ثقل ما كانت تخطط له يضطرب في معدتها.

قالت نجمة: "اجلسي"، وأشارت إلى مقعد منخفض. سكبت شايًا أسود كثيفًا في كأس، وناولته للمرأة العجوز التي قبلته بابتسامة عارفة.

"أشعر بعاصفة في قلبك"، قالت مباركة وأصابعها العظمية تدور حول الكأس. "لكن العواصف جيدة. إنها تطهر النفوس من أدرانها."

نظرت نجمة بعيداً. لم تستطع أن تقول لمباركة أن العاصفة كانت من صنعها، ولا أنها ستستهلكهم جميعًا قبل أن تمر. لقد عقدت العجوز العديد من الصفقات، وهمست بالعديد من الأكاذيب، وربطت مصير نجمة بالآخرين بطرق شعرت الآن أنها

خانقة. لكن لم تكن مباركة وحدها من كان عليها أن تدفع الثمن؛ فصبوة أيضًا بلسانها الحاد وأساليبها المتطفلة كان لا بد من إسكاتها. كانت خطة نجمة قيد التنفيذ بالفعل.

كان الدخان المتصاعد من كوخ التكازة مباركة يتصاعد بكثافة في الهواء، ممزوجًا بالتوتر المتصاعد الذي سيطر على القرية. انتشر الخبر بسرعة، "حسنة ماتت. حسنة حرقت نفسها بالكيروسين". وبحلول منتصف النهار، تجمع حشد من الناس في الساحة. بدأ الشبان، وقد أضاءت وجوههم بالغضب واليأس، في ترديد الهتافات، وبدأت أصواتهم تشق الصمت الذي حكم الحوايز لعقود.

في مركز الشرطة، كان مرعي يراقب من خلال النافذة الضيقة، ووجهه شاحب. لقد كان دائماً لغز القرية، ولم يكن يستمد قوته من العطف، بل من الخوف. والآن، انقلب هذا الخوف ضده. فقد طالب القرويون الذين شجعتهم همسات الثورة القادمة من العاصمة بالعدالة - أو ربما بالانتقام.

كان الشيخ تراب، إمام الجامع، قد حبس نفسه في زاوية المسجد، وهو يتنقل بين الدعاء اليائس والمكالمات الهاتفية المحمومة مع السلطات التي لم تعد تبدو أنها تسيطر على الوضع. كان مرعي، الذي كان في يوم من الأيام تجسيدًا للخوف والسيطرة، قد انسحب إلى مركز الشرطة، الذي أصبح الآن محاطًا بالشبان الغاضبين المسلحين بأسلحة مؤقتة - حجارة وهراوات خشبية وغضب المظلومين الذي لا يلين.

تحولت ساحة القرية القديمة، التي كانت يومًا ما مكانًا للمقايضة الهادئة والثرثرة الفارغة، إلى ساحة معركة. أما سيارة الأجرة التي كانت رمزًا للاتصال بالعالم الخارجي، فقد احترقت الآن وقد انقلبت إطاراتها وتحطمت نوافذها. لم يكن السائق

قليعي نفسه موجودًا في أي مكان، ربما ضاع في الفوضى أو اختار الهرب بحكمة.

كان مرعي يعلم أن قوة الدعم لن تأتي في الوقت المناسب. كان بإمكانه سماع الهتافات تتعالى، وصوت الحجارة وهي ترتطم بجدران المحطة. أمسك بمفاتيحه وتسلل من الخلف، واختفى في الصحراء مثل شبح.

الهريسة

والدتها وخالتها وصلصة الهريسة بالبصل. الآن، حسنة تتكيف جيدًا مع الحياة في منزلهم الصغير المتلاصق. لقد جاؤوا بمرحاض جديد من النوع الذي يشطف المؤخرات.

تناولت الطعام من صحن مرگاز محضر مع البطاطس المهروسة. تفاحة مهروسة أيضا ومحضرة في المنزل. انه طعام الجنيات. كم كانت أمها تحذرها. الماء الساخن عند الطلب. أكواب الشاي الأخضر اللانهائية، وفرحة الفراش الدافئ. عندما تغادر حسنة المنزل للذهاب إلى الحانوت، تفكر متى سيكون لديها غرفتها الخاصة بسرير مزدوج، ولكن أمها وخالتها كانتا تشاركانها نعمة السرير، كما يجب أن تكونا قد فعلتا عندما كانتا طفلتين. لا يمكن لحسنة أن تسمع الكلمات من خلال الجدران، ولكنها تسمع أصوات أصواتهما وهما يتحدثان بدفء حتى وقت متأخر من الليل.

خالتها تعيش حياة جيدة الآن؛ بعد وفاة أمها، فهي غالبًا ما تتنزه في الجبل مع حسنة، متذكرة أختها التي تقسم أمام ابنتها أنها لم ولن تنساها، ولكن الحياة يجب أن تسير، والحي أبقى من الميت. تتنزهان فوق العشب الجديد المنبثق، وصعودًا إلى الأخضر الأكثر هدوءًا بعد حريق الصيف. تجلسان على المنحدر، على وسائد من البراكين، تتحدثان، أو لا تتحدثان، بينما يلعب عالم

صغير تحتهما. لا يوجد شيء يحتاجه المرء أكثر من أخت. وحسنة بلا أخت.

أحداث الصيف جلبت الكثير من الزبائن المتهالكين على المواد الغذائية لإسكات أمعاء سكان الحوايز. ومع ذلك، يبدو أن قصة نجمة ما زالت تثير اهتمام الناس رغم مرور الوقت الكافي.

الشعور بالذنب يعوق الكلام. بعض الذين يتذكرون جمالها عندما كانت في سن السادسة عشر يشعرون بالرعب من تدهوره الآن. النساء والرجال سيؤدون التحية لها إذا رأوها في الشارع ماشية، ثم سيلتفتون بسرعة، يبحثون عن شيء يشتت انتباههم عن الشر، أو الشهوة، أو الغيرة، وأي دور قد لعبته في مصيرها ومصيرهم. ليس هناك قلب في الحوايز يمكن أن يتجاهل سحرها، أنفها المستقيم، مؤخرتها المكورة. أما الجروح والكدمات والذكريات التي تشوه فلا تثير شفقة حسنة أبدا، وكأنه لا قلب لها، ولكن ليس كثيرًا، حتى لا يمكنها أن تلتقط الصور المحطمة بين أصابعها والربيع المندفع عبر الهواء والذي يصيب زاوية عينها فتدمعها.

لكنني في السابعة عشرة، وأجمل من نجمة. أسقطت الأوراق في سلة الغسيل وجلست على صندوق القمامة المعدني لمشاهدة الجبل يحترق من الجانب الآخر للوادي. أشعلت سيجارة وفكرت في الحطاب. في ذهنها، كانت أصابع نجمة تحمل سيجارة أيضًا، لكنها كانت محاطة بتدافع أيدي الرجال، يقدمون لإشعالها. كانت الأمور دائمًا هكذا.

أسقطت حسنة سيجارتها المشتعلة وشاهدت النصف الأخير يحترق حتى طرف الفلتر. أغلقت حسنة علبة السجائر الفضية الهدية من خالتها.

في حانوت القرية، جلست العرافة مباركة العجوز على كرسي مرتفع خلف الكاونتر، ملفوفة بملابسها التي تفوح منها رائحة

الشيح وتلتصق بها نجيلات الحشائش. كان وجهها الصغير الشيطاني يظهر من تحت الحجاب المربوط بإحكام تحت ذقنها.

ذهبت حسنة إلى الثلاجة في الغرفة الخلفية للمتجر وأخذت آخر لتر من الحليب، وجاءت به ووضعته أمام العرافة.

كانت حسنة ساعتها غير مدركة أن والدها المريض دوما والمعاق عن الحركة قد انحنى لتجنبها، وأخفى نفسه خلف رفوف البضاعة المعروضة.

ركزت مباركة عينيها على جسم حسنة، وعندما اغتنمت فرصة عدم دخول الزبائن إلى الحانوت، لمعت عيناها بتلك النظرة الإباحية المعروفة عنها والتي تحتفظ لنفسها بحق استعمالها في الأوقات المناسبة، ومدت يدها إلى عجيزة حسنة وهي تهمس لها بإعجاب أنها قد كبرت وتدورت ونضجت وحان قطافها. راقبتها وهي تغوص في خيالات الأرجل المفتوحة والوعود السهلة. هؤلاء المراهقين الذين يدخلون الحانوت كل الوقت دون أن يشتروا شيئا ذا بال، يشغلون مساحة في تفكيرها، وربما كانوا يمدون أيديهم أيضا كلما سنحت لهم الفرصة الى مفاتنها التي لا تقاوم. في طريقها إلى الإجهاز على كاسة الشاي أمامها، لم تخرج حسنة عن طورها ولم ترد الفعل بضرب يدها أو بشتمها أو برميها إلى الشارع. إذن، هذه الفتاة تريد مني شيئا.

هل فهمت ما هو المطلوب منك يا عجوز النحس؟ وأعدك أنني في كل مرة سأملأ لك قفتك بكل ما في الحانوت مما تستطيعين حمله من هنا حتى عشتك النتنة في آخر الحوايز. فاهمة؟

كان والدها قد انسحب وجلس على صندوق القمامة في الفناء الخلفي، يشعل سيجارة أخرى. وضعت حسنة الحليب في القفة إلى جانب المقرونة والكسكسي وعلبة الهريسة وثلاث علب من التونة الفاخرة وقالب مستدير من الجبن المغلف بالشمع الأحمر وقنينة كبيرة من زيت الزيتون وخب تان من الحجم

الكبير. ورأت وهي تكدس المشتريات فوق بعضها صورة مخبأة في قعر القفة المصنوعة من خوص النخيل.

يا له من مشروب رائع. ضعي لي قارورتين من الكوكاكولا، أكيد أحتاجهما بعد غداء قمقوم من الكسكسي ولحمة الخروف الكبيرة التي سيشتريها لي الحطاب اليوم بعد أن أخرج من عندك. وغمزت لها بعين واحدة وابتسامة متواطئة.

كانت حسنة قد قررت المضي في مغامرتها مهما كان الثمن. كانت تسميها ليلة العقرب، عندما تفتح الباب خلسة لكي يلج الحطاب غرفتها بعد أن يتناول والدها حربوشة النوم فيصبح كالقتيل. كان والدها يقص عليها وهي طفلة كيف انه وأصحابه كانوا يذهبون في الليالي المقمرة لسرقة فواكه ومحاصيل حقول المعمرين وملاكي الأراضي السمان، حيث يدخلون الحقول والمزارع وهم على يدين وساق واحدة، بينما الأخرى يرفعونها لتصبح مثل ذيل الدابة وهي تسعى على أربع. لكن حسنة وهي ترى الحطاب يدخل بيتها وهو على هذه الحال بعد أن لقنته الدرس لكي يتفادى الأعين الفضولية والشبابيك الواطئة في الحارة المتلاصقة البيوت، رأته في الظلام وهو لا يشبه الدابة، بل ذكرها بالعقارب التي كانت تنتشر في دارهم القديمة وكانت أمها تتفنن في طردها أو القضاء عليها بقبقاب خشبي تستعمله للحمام. وهكذا ضحكت وقالت له يزي هيا اعتدل أنت دخلت البيت ووضعك يشبه العقرب والعياذ بالله.

كانت ليالي العقرب في غرفتها تمضيها حتى الفجر مع الحطاب في الحب والهمس والضحك والطعام والشراب والملامسات والتبادلات السطحية للمتعة. كانت تغوص عميقا في اللذة دون أن تدعه يفتح الباب ويلج المكمن السري. كان يحاول ويضغط ويغوي، وكانت تستلذ كثيرا وهي تتمرغ في سريرها الضيق مسحوقة تحت جسده الضخم، وأحيانا تكاد أن تستسلم وتفتح الباب والشباك وكل شيء، لكنها كانت تسيطر في آخر لحظة.

تعرف شنوا يا حطاب! نحبك تأخذني، صحيح، مش باش نمنعك، بس أنا نخاف من روحي. الصحيح نخاف من صوتي، لأني ساعتها وأنت تأخذني بقوة، باش يخرج من صوت وصراخ يا ساتر، مش تسمعه الحوايز بركا، بل تسمعه كل البلاد، كلها، من شمالها لجنوبها!

وهكذا، تتأرجح "الفكرة متاع المرة الأولى" عبر الأمواج المشمسة، والليالي المرصعة بالقمر، وتحمل شحنتها من الباحثين عن المتعة، والغارقين في الحب حتى آخر شهقة تخرج من أعماق الروح. هي تريد أن تمنحه نفسها مرة واحدة وبلا تردد أو حسابات، وهو يريد أن يعيش سعادته من جديد، بعد أن عتقت وتخربت مع نجمة، تلك التي ضيعت له عمره مقابل لا شيء.

لن تأخذني يا حطاب هنا في بيتي، ووالدي ينام في الغرفة المجاورة غافلا عما يحدث في بيته. كلا. لن تدخل في إلا في مكان آخر. مكان بعيد حيث لا يسمع صراخي من اللذة أحد غيرك. وسيتردد في الصحراء لتسمعه الذئاب وتنتشي برائحة الدم الذي سيخرج مني ليلتها مثل السيول. أفهمت؟

على حافة عالمهما، يسقط الضوء في أشعة متعددة الألوان مثل قوس قزح وردي فاتح بعد مَطرة خفيفة قبيل غروب الشمس، مخفف بطبقات من السحب. يضغط الليل على حسنة والحطاب. أجسادهما دافئة وآذانهما تشبه الجليد. يلف ذراعه حول عنقها، وهي تسمح له بتخيل أنه يحميها، ينقذها من شيء ما، على الرغم من أنهما يعلمان أنهما ينقذان بعضهما البعض.

كان محتارا. إذا كانت هي حقا بنت بنوت، ولم تخترق إلا الليلة، فمن أين لها عادة الصراخ أثناء المجامعة؟ أنت فضحتنا الليلة، ربي ياخذك نشالله. فعلا، لو كنا في دارك في القرية لكانت الشرطة في العاصمة قد ضاعفت من نوبات حراستها. أنت فضيحة يا حسنة. وضمها إليه بحنو فصارت تحكي له كيف أن

خالتها قد علمتها منذ صغرها أن تستعمل بمهارة أصابعها كلما واتتها الفرصة واختلت بنفسها لتستخرج آبار اللذة وتحرر جسدها عبر الخيال وتطلق صوت الوحش الجميل الرابض داخلها وهي تغني وترقص عارية في سماء الحرية.

في النهاية، وبشكل لا مفر منه، تفتح حسنة ساقيها وتستخرج بسبابتها قطرات الدم. وما زالت متقربة من عشيقها، تبدأ في رسم مستقبلها على كتفه العريضة، بينما هو يقذف الحجارة في المنحدر الرملي الكائن خلف الكوخ النتن، ومباركة تشخر على مبعدة منهما وقد غطت نفسها بعباءة فاخرة من وبر الأغنام لا يلبسها كما أخبرتها حسنة إلا شيوخ القبائل الذين تلمع سيوفهم تحت الأقمار وهم يركبون خيولهم الجرارة لفتح قلاع مستعصية تنام على الذهب.

صعب أن تكون وحيدًا ومغرمًا. يقول الناس في كثير من الأحيان إن الحياة العازبة ممتعة وأنني يجب أن أستمتع بها ما دمت صغيرة ووحيدة وبلا أطفال. ولكن ما لا يفهمونه هو أن تكون وحيدًا ومغرمًا هو صراع مستمر. إنه كما لو أنني أسير على حبل مشدود كل يوم، أحاول أن أوازن ما بين قلبي وعقلي.

وبمرآة صغيرة مضببة في يدها، كانت حسنة تخاطب نفسها وقد تملكها الإصرار وعدم الخوف بعد ليالي العقرب ونهارات العرافة ولياليها أحيانا أيضا. يجب أن أبقى قلبي مفتوحًا بما فيه الكفاية لتجنب الأذى. وفوق كل شيء، يجب أن أستمر في الاعتقاد بأن هنالك شخص ما هو لي، ملكي، أنا لوحدي، حتى عندما يشعر وكأنني أتخبط في الظلام.

ولكن على الرغم من كل شيء، أعلم أنه يستحق المجاهدة. أعلم أنه عندما أجد ذلك الشخص الذي يفهمني ويحبني حقًا، سيكون أفضل شعور في العالم. لذا، في الوقت الحالي، سأستمر

في البحث والأمل والتجربة والمغامرة بأن هناك شخص ما في هذا العالم سيكون هو قدري الذي لا مفر منه أبدا.

مباركة ونجمة والحطاب

السعي غير المرغوب فيه في هذا العالم المضطرب من جحيم العلاقات يصبح فجأة حكاية اغتصاب وحب وحريق. وهكذا تجد نجمة نفسها محاصرة في ضغط لا ينتهي من قبل الحطاب، على الرغم من زواجها من ابن عمها بوراوي. حيث سيقوم هذا الأخير من غير أن يقصد بالطبع، هو الآخر بالسعي الحثيث الذي لا هوادة فيه لتفكيك الحياة الأسرية الهشة التي بنتها رغم كل شيء. منذ البداية، وجدت نجمة، عاشقة النجوم والليالي وأغاني أم كلثوم، نفسها واقعة في شبكة من الخداع المغطى بالحب، لكنها تصبح مفتونة بالحطاب، مرسومة إلى سحره ووعورة شخصيته الغامضة وقوته البدنية، مع أنها تكرهه في الوقت نفسه كره العمى بسبب ملاحقته لها طوال الوقت. ومع ذلك، فإن العائلة تملي عليها أنها يجب أن تتزوج من ابن عمها، وتحمل طفله في بطنها: الأمجد، كنا يخلو لها أن تسميه أمام الناس. وعلى الرغم من هذا الالتزام بالتقاليد، يرفض الحطاب التخلي عن نجمة، ويخلق لها باستمرار جوا من عدم الارتياح المستمر والخطر. وتحت ضغطه، تقوم بتحقيق سلسلة من اللقاءات الحارة مع الحطاب في أماكن متعددة على مشارف القرية بعيدا عن الأعين. يصبح هذا الطقس الجنوني تهديدا في حياتها، ويترك في الظل خطورته مع كل خطوة تخطوها. لقد استهلكت نجمة حذرها تقريبا، وصار هاجسها الثابت هو متى ستحدث الكارثة وتنكشف فعلتها أمام الجميع. أفكار مرعبة

تدفعها إلى تدابير يائسة للحفاظ على احترامها أمام عائلتها وأمام زوجها وابنها. وكما تتنقل نجمة في حياتها الزوجية، تصبح على دراية بشكل متزايد بوجود عشيق لها يسعى سعيه الذي لا هوادة فيه لمحاصرة ضعفها وابتزازها. لقد صارت غير قادرة على الهروب من براثنه. إنها تعيش في خوف مستمر، لا تعرف أبدا متى سيطلبها لخلوة مريبة. وعلى الرغم من محاولاتها للتملص منه في عديد المرات، إلا أن الحطاب كان يواصل كفاحه في سبيل إيجاد طرق للتسلل إلى حياتها. تصبح تصرفاته مستفزة بشكل متزايد وعنيد، مما يجعل من الواضح أنه لن يتوقف عند أي شيء في سبيل امتلاكها. يجلب الحطاب في كل مواجهة له معها موجة من القلق والرهبة، مما يترك داخل روحها ندبات عاطفية ومشاعر مركبة من الحقد واللذة والاستمتاع. هذه الدوامة من السعي العنكبوتي غير المرغوب فيه، لا يهدد رفاهية العشق الممنوع فحسب، بل يضع عليها أيضا ضغطا رهيبا على علاقتها مع ابن عمها. يصبح بوراوي، شيئا فشيئا، مشتبها بسلوك زوجته عبر ظنون وشكوك لا يريد هو لها أن تتبرهن أمام عقله وناظريه. إن من شأن هذا أن يغذي لديه شعور الخذلان وعدم الثقة، وسيتعقد الوضع الهش لحياته معها بالفعل، فهو يحبها بصدق إلى درجة أنه مستعد للتغاضي عن كل شيء في سبيل أن يبقيا معا. إنه بمثابة تذكير دائم بالخطر الأساسي الذي يواجه كلا منهما: مطاردة أي مظهر من مظاهر السعادة في زواجهما. أما بالنسبة للحطاب، فإنه يصبح من الواضح أن الكارثة قادمة ولا شك على يديه. إنه بمثابة حافز للأفعال المرعبة اللاحقة التي ستنتهك الصمت وتضع الجميع بمن فيهم حسنة، على جمر النار الملتهب الذي سيودي بالأمان إلى الأبد.

وفي كوخ العرافة المشعوذة مباركة العجوز، كانت الإضاءة كالعادة خافتة، بينما رائحة البخور والحرمل تتصاعد في الجو. تجد حسنة (التي هي غارقة في الحب العميق مع الحطاب، وغارقة في الخوف الشديد من نجمة) نفسها محاصرة في فخ من

سوء المعاملة والانتهاك في كل مرة تكون فيها وحدها معه. إن الاغتصاب فعل بغيض وشنيع، وفي هذه الحالة، حسنة ليست استثناء. كل لقاء حميمي مع الحطاب يترك شعورا لديها بالعجز والانتهاك والإحساس بالذنب. اختراقات الحطاب لها ليست فقط جسدية، ولكن أيضا عاطفية. إنها حقا مثقلة بالشعور العميق بالعار والذنب، وإلقاء اللوم على نفسها عن الأفعال التي تقوم بها دون أي إجبار من أحد، ولا حتى من الحطاب نفسه. إن الموافقة هي جانب أساسي في أي علاقة غرامية. وبفطرتها الأنثوية أدركت حسنة هذا منذ أول لقاء سري بينهما. لقد قررت أن تكون حرة في مشاعرها متحكمة في جسدها ولمن تعطيه، لكنها تعاني كثيرا من أجل أن تبقى خارج دائرة الخوف والانتقام.

الحطاب بنبرة متوسلة يخاطب حسنة قائلا: "أرجوكِ لا تخافي. سنكون معًا رغم كل شيء. لا يهمني ما يقولونه عني. أنا مستعد لمواجهة العالم من أجلك". تتلفت حسنة بحذر لترد عليه قائلة: "لكن، يا حطاب، لو عرف أهل القرية بحكايتنا، سيفعلون بنا ما لا يتخيله عقلك. خاصة إذا اكتشفت نجمة أننا نلتقي هنا". ويغلي الدم في عروق الحطاب فينهض ساخطا غاضبا: "نجمة؟! آخ من نجمة! تلك الأفعى الساقطة، لا تزال تلاحقني حتى بعد زواجها من بوراوي. هي لا تستطيع تقبل أنني تركتها". وسمعا معا ضحكة مباركة الخافتة وهي تدخل وتجلس بينهما. "آه، يا أولاد... الحب دائمًا ينتهي بحريق في الحوايز. لكن حذارِ، فهناك من يتربص بكما. هذه القرية ليست هادئة كما تبدو". تسأل حسنة بقلق: "من تقصدين يا عجوز النحس؟". وتقول لها العجوز انها لن تزعل منها على كلامها هذا، بل هي تحذرها من زوجة بوراوي، نجمة. "فالغيرة يمكن أن تُشعل النار أسرع من البارود".

الزمان: ليلة من ليالي ألف ليلة.

المكان: بيت نجمة الفخم مقارنة ببقية بيوت أهالي القرية. نجمة تقف أمام مرآتها، ترتدي قميص نوم مغر وفاخر. يدخل بوراوي، زوجها، ويبدو عليه الإرهاق).

بوراوي: نجمة، لقد سمعت اليوم برشا إشاعات في السوق. يقولون إنكِ لا تزالين تحنين إلى ذلك الوغد السافل المنحط.

نجمة (بابتسامة ماكرة): الإشاعات يا بوراوي، هي لعبة هذه القرية. دعهم يتحدثون، فهم لا يعرفون شيئًا. وأنا أحبك أنت ولا أميل لغيرك مهما حصل.

بوراوي (مغتاظًا): هل تعتقدين أنني أعمى؟ هل تعتقدين أنني غبي؟ تذكري، إذا ما غضبت يا نجمة، فلن أرحم أحدًا.

نجمة (بكل برود): أخشى يا بوراوي يا حبيبي أن الوقت قد فات. النار قد اشتعلت بالفعل، ولن تكون قادرًا على إطفائها، فلا تتعنتر! (تتقدم نحوه خطوتين وتهمس بغنج ودلال) هيا حبيبي، اغسل أسنانك على عجل، وتعال لأحكي لك ما يقوله الليل للشوق والحنين.

الخطة اليائسة في هذا السياق تتحدث عن قرار صدر بعد دراسة متأنية يتم بموجبها دفع الحطاب للوقوع في علاقة جنسية مع صاحبة المتجر البيضاء الجميلة، كحل لتخليص نجمة من المأزق المروع غير المرغوب الذي وجدت نفسها فيه. لقد تركت دون أي خيار سوى وضع مخطط جهنمي للهروب من براثن معذبها الذي ينوي تدمير حياتها ومستقبل أسرتها. إنها لعبة خطيرة تلعبها، لكنها على استعداد لأخذ المخاطر من أجل تأمين حريتها. إنها تعرف أن تصرفاتها قد يكون لها عواقب وخيمة على حسنة، لكنها لا ترى أية طريقة أخرى لحماية نفسها من

الحطاب والتهرب من سوء المعاملة في عالم تبدو فيه العدالة بعيدة المنال. ومهما كانت النتيجة فإن عواقب خطتها هذه ستكون بمثابة تذكير صارخ بالطبيعة المعقدة من اليأس البشري والسعر المرتفع الذي يجب أن يدفعه الإنسان أحيانا في مقابل الحصول على الحرية.

الزمان: أمسية من أماسي الحنين.

المكان: منزل حسنة. والدها يجلس في الفناء الأمامي، يدخن غليونه، بينما تدخل صبوة، مرتدية ثوبًا عصريًا لافتًا. حسنة تقف خلف الباب، تسترق السمع.

صبوة: السلام عليكم يا عم. كيف حالك؟ جئت لآخذ حسنة في عطلة نهاية الأسبوع لنستمتع بالبحر. البحر سيُنعشها قليلًا.

والد حسنة (بتجهم): لا حاجة لها بالبحر ولا بالمُتع. حسنة ستبقى هنا، حيث تنتمي. أنتِ تعرفين أنني لا أثق بتصرفاتك يا صبوة، ولن أسمح لابنتي بالذهاب معك.

صبوة (بنبرة متوسلة): يا عمي، إنها مجرد عطلة قصيرة. لن يحدث شيء، أعدك بذلك.

والد حسنة: كفى! قلت كلمتي وانتهى الموضوع. عودي لوحدك من حيث أتيتِ.

(تخرج صبوة غاضبة من المنزل، بينما تنظر حسنة إليها بحزن من النافذة).

وجاءت إحدى اللحظات المحورية عندما شجع القدر المجموعة النسائية المكونة من مباركة وصبوة وحسنة ونجمة بطبيعة الحال والمآل، على كتابة مخاوفهن على قطع من الورق

ثم حرقها بشكل جماعي في عمل رمزي للإفراج عنهن من أسر أوهامهن، كما قررت ذلك مباركة ولعبتها الشيطانية الجديدة هذه في قراءة الطالع. عندما شاهدت نجمة مخاوفها تتحول إلى رماد، غمرها إدراك عميق: أنها لم تكن وحدها في هذه الرحلة. إن مواجهة التحديات معًا لم تخفف من خوفها فحسب، بل أشعلت أيضًا شعورًا بالارتباط الذي استعصى عليها لفترة طويلة.

وفي تلك البيئة الداعمة، بدأت نجمة في التخلص من طبقات الخدر التي ميزتها لفترة طويلة. ومع كل تحد يواجهنه، شعرت بشعور متجدد بالشجاعة يزدهر بداخلها. علمتها التجربة أن الخوف، عند مشاركته ومواجهته، يمكن أن يتحول إلى حافز قوي للتواصل والنمو. ومن خلال الروابط التي شكلتها مع الأخريات، لم تتغلب نجمة على خوفها فحسب، بل اكتشفت أيضًا جمال التواصل البشري، وهو درس من شأنه أن يرشدها بينما تستمر في طريقها نحو حياة أكثر حيوية وإشباعًا.

الدروس المستفادة والرؤى العميقة التي تتجاوز السطح البراق للأحداث، من مستخلصات رحلة نجمة الى مدن الساحل المزدهرة بالسياح العرايا، وبالعاهرات الصبايا الباحثات عن لقمة عيش تسد أفواه عائلاتهن الجائعة. وبينما اجتمعت المجموعة في مكان دافئ وجذاب مليء بالضحك والقصص المشتركة، اكتشفت نجمة قوة التجربة الجماعية. كان كفاح كل شخص يعكس كفاحها، وكانوا يدعمون بعضهم البعض بالتعاطف والتشجيع. لقد شاركوا في أنشطة تهدف إلى تجاوز حدودهم، سواء كان ذلك من خلال مشاركة مخاوفهم العميقة، أو تجربة التحدث أمام الجمهور، أو حتى الانخراط في التعبير الإبداعي. ومع كل تحدٍ يواجهانه معًا، شعرت نجمة أن جدرانها بدأت في الانهيار.

استلقت الحوايز ساكنة تحت وطأة شمس تأبى أن تخفف من شدتها الغيوم. كانت الصحراء ممتدة إلى ما لا نهاية، مثل بحر من الذهب، لا يعكر صمتها سوى هبوب الرياح التي كانت تتراقص بين الحين والآخر بين أشجار النخيل، هامسة بأسرار حملتها من الكثبان البعيدة. كان يومًا كغيره من الأيام، ومع ذلك كان هناك شيء لا يوصف في الهواء، توتر بدا وكأنه ينبعث من الأرض ذاتها تحت أقدام "الحوايزيين".

رحلة نجمة من الخدر إلى الاتصال مليئة بالدروس العميقة التي يتردد صداها مع أي شخص يتصارع مع مشاعر العزلة أو الخوف من الاندماج.

الحريق

وفي تلك الليلة، حدث شيء غريب في "الحوايز". فبينما كان الناس نيامًا في أسرتهم، سمعوا صوتًا عاليًا يملأ الهواء. كان صوت الجبل الذي اشتعل في الصيف القريب. كان يتحدث بلغة غير مفهومة، ولكن بنبرة غاضبة ومتألمة. كان ينادي باسم حسنة، المرأة التي أضرمت النار فيه. كان يطلب منها أن ترجع إليه، ويعدها بالغفران والمحبة. كان يتوسل إليها أن تنقذه من العذاب الذي يعانيه في وحدته، ذلك الجبل الأجرد المخيف.

ولكن نجمة لم تسمع صوت الجبل. كانت نائمة بجانب زوجها بوراوي في غرفتهما المشتركة. كانت تحلم بالأيام التي قضتها مع الرجال الذين أحبتهم وخدعتهم وتركتهم. كانت تحلم بالأموال والسفرات والمغامرات التي عاشتها في المدن الساحلية الكبيرة. كانت تحلم بالحرية والسعادة والجمال الذي فقدته. وفي حلمها، كانت ترى وجهها القديم، الذي لم يمسه الزمن أو النار. كانت ترى ابتسامتها الساحرة وعينيها اللامعتين وشعرها المتقلب لونه. كانت ترى نفسها كما كانت قبل كل شيء.

وفي غرفة أخرى، كانت مباركة العرافة تستيقظ من نومها. كانت تشعر بالقلق والفضول. كانت تسمع صوت الجبل الذي ينادي حسنة. كانت تتساءل عن سرها وماضيها. كانت تتساءل عن سبب حبها لنجمة، وعن سبب كراهية الناس لها. كانت تتساءل عن مستقبلها ومصيرها. كانت تريد أن تعرف المزيد عن العالم

البعيد المترامي الذي لم تره بعد. كانت تريد أن تغادر هذه القرية الصغيرة الحقيرة، وتبدأ حياة جديدة. كانت تريد أن تكون مختلفة عن مصيرها.

وفي حانوت القرية، كان والد حسنة، الرجل العجوز العاجز، يستعد لفتح المحل. كان يحمل مفتاحًا كبيرًا في يده، ويمشي بخطوات بطيئة متثاقلة. ويشعر بالملل والكآبة. كان قد كره حياته كلها، وكره هذه القرية النائمة وأهلها الأغبياء. كان يكره عائلة بوراوي وكل ما يمثلونه، ويكره الحطاب، ويكره المشعوذة السحارة مباركة الخرقاء، ويكره الشرطي مرعي، وسائق اللواج الوحيد في القرية اللعينة. يكره هؤلاء ويحسد خالة ابنته على شجاعتها وجرأتها وحياتها المثيرة. كان يتمنى أن يكون مكانها، أو على الأقل أن يراها وهي تبصق على الأرض باحتقار كلما جاء ذكر الحوايز وأهلها. طلبها للزواج مرة واحدة بعد وفاة زوجته، أختها، لكنها رفضت رفضا باتا قائلة له كلا لن تنام معي حتى ولا في الأحلام، لكني سأرعى حسنة ولن أتخلى عنها فلا تقلق عليها

ولكن عندما وصل إلى باب الحانوت وفتحه من الداخل، حيث كانت داره تشكل القسم الخلفي من المتجر، فوجئ بمنظر غير متوقع. كان هناك شخص مستلق على الأرض، مغطى بالدماء. كان وجهه محروقًا ومشوهًا، ويرتدي سترة زرقاء وبنطال جينز. كان يحمل حقيبة صغيرة في يده. ويبدو أنه كان قد فشل في كل شيء قبل أن يموت أو يقتل.

وفي تلك اللحظة، أقبلت حسنة من الخارج مع خيوط فلق الصبح ولم تتوقع أبدا أن ترى أباها متسمرا أمام باب الحانوت وبينهما جثة مدماة. لقد نسي الوالد أن يسألها أين كنت ومن أين أتيت، ولو أنه في قرارة نفسه كان يعرف أين قضت ابنته ليلتها ومع من كانت، لكنه ظل يحدق في الجثة دون حتى أن ينظر الى حسنة، بل كان يدمدم مذهولا لا حول ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ويضرب كفا بكف، ويا رب استر يا رب، آش هالمصيبة يا ربي!

وبينا هما في هذه الحال إذ بسيارة مسرعة تقف فجأة في نهر الشارع أمام الحانوت مباشرة مثيرة عاصفة من الأتربة والغبار ورائحة المطاط المحترق. كان مرعي، مسؤول الأمن في الحوايز يترجل من سيارة الحرس الوطني وهو بكامل قيافته الرسمية وقد تمنطق بالمسدس الحكومي من نوع ويبلي عيار 9 ملم. محدش يلمس حاجة محدش يلمس حاجة. ابعدوا هيا ابعدوا. أصدر أوامره القاسية بصوت جهوري وصل حتى آخر القرية ليستيقظ فجرها ويأذن لخيوط الشمس بالتسلل على مهل واستحياء. تجمع عدد من المارة بطبيعة الحال ووقفوا بعيدا لكيلا تطالهم أوامر مرعي بضرورة مغادرة المكان فورا وعلى كل واحد أن يشوف شغلو..

لم تتبين حسنة لأول وهلة ذاك الرجل القصير القامة بالمريول الطبي الأبيض وهو يهبط من سيارة الحرس على إثر انقضاض مرعي على الحادثة بذاك الشكل المبالغ فيه، لكنه تراه الآن وهو يتفحص الجثة ويقوم بما يلزم من الإسعافات الأولية التي ربما يكون قد فات أوانها بالنسبة لهذا الشاب المرمي على الأرض ولا أحد يدري منذ متى فلربما قد مرت عليه ساعات وهو في النزع الأخير. انقبض قلبها فجأة. أكيد سيسألها الشرطي بعض الأسئلة المربكة. فكرت في أبيها، لكنها حزنت أيضا في قرارة نفسها على مصير هذا الرجل الملقى أمام حانوتها معفرا بالتراب وتكاد أن تفوح منه رائحة الدم.

فجأة صرخ صاحب المريول الأبيض والسماعات الطبية على عنقه " ما ماتش ما ماتش، ما زالت فيه الروح". نهض مرعي ووقف على ساقيه وعدل من وضع طاقيته وتوجه بالحديث العصبي نحو حسنة ووالدها وهو يلوح بيده "أعطوني كرسي من الداخل، أعطوني كرسي..". ثم التفت بحنو نحو حسنة التي

يبدو انه قد انتبه للتو لوجودها "متخافيش يا بنتي متخافيش". وطلب إليها بهدوء أن تدخل الى حانوتها لكيلا تنصدم برؤية هذه المناظر.

سمعت حسنة صوتًا آخر. كان صوت الشاب المدمى ببنطال الجينز وهو يطلق الأنين الخافت بعد أن حركه صاحب المريول الأبيض قليلا، وبدأ يمسح عينيه وما بينهما بقعة من الشاش وشيء من المطهر بالرائحة النفاذة. يا إلهي هذا أعرفه! ماذا يفعل هنا بحق الأنبياء؟ وبين قلق وخوف وفضول، اقتربت حسنة ثانية من الجثة. إنه الشقيق الأصغر لصديقتها التي تزوجت قبل أشهر وغادرت القرية ولم تعد تراها إلا في المناسبات والأعياد وإن تصادف مرورها بالمنطقة التي فيها الحانوت. قبل يومين كان مختبئًا خلف جذع الشجرة المحاذية لباب الحانوت، يراقب ما يحدث. هي تعرف أنه كان يلاحقها لكن دون أن يضايقها. يدرس في إحدى المعاهد في مركز الولاية وعندما يأتي إلى الحانوت أحيانا لرؤيتها طبعا بأية ذريعة كانت، كان يخرج من حقيبته كتابا ويرميه على كاونتر الحانوت ويقول لها بصوت خجول، هذه قصة حلوة جلبتها لك من المدينة، اقريها بالليل راح تسليك برشا. كانت تبتسم له ابتسامة بلا أمل، لكنه كانت تشجعه أيضا لكي يأتيها بمزيد من الكتب. وكانت ترى بعين معينة أنه رغم ارتباكاته وقلة حيلته، فقد نجح في كل شيء.

وبينما كانت حسنة تحدق بصدمة ورعب في الجثة أمامها وهي تسترجع شريط الذكريات القريبة الغريبة، سمعت الشاب الموجوع المدمى ببنطاله الجينز الممزق وهو يتقلب بين يدي المضمد والشرطي يقول لها بصوت هادئ وضعيف:

- صباح الخير، داموزيل. هل تحبين الواقعية السحرية؟

صبوة ونجمة وحسنة

وقفت "نجمة" في فناء منزلها، ووجهها ذاهب نحو امتداد الأفق. كانت خطوط الوجه، على الرغم من خفوتها، قد تعمقت في الأيام الأخيرة، محفورة بأفكار أثقل من أن تُشاركها مع أي أحد. كان أمجد يلهو عند قدميها، وضحكاته تتسرب في الهواء مثل ماء يتسرب من جرة مشقوقة. إنها تراقبه بمزيج من الشوق والخوف، كما لو كان طائرة ورقية تركتها تطير عالياً وقد لا تستعيدها أبداً.

ومن خلفها، كان صوت بوراوي يخترق السكون، ويدعوها إلى عالمها الملموس والدنيوي. كان يقف عند المدخل، يحمل كيسًا من الخيش على كتفه، ونظراته نحوها ثابتة كالعادة.

"الصبي جائع"، قالها بنبرة هادئة.

أومأت نجمة برأسها، بعد أن أدركت نبرة اللوم المخفية في كلامه، وانسحبت إلى ظلال المنزل الباردة. وبينما كانت تعد وجبة منتصف النهار، كانت أفكارها تتجول في ذهنها إلى الحطاب. كانت تشعر بوجوده حتى عندما لا يكون موجودًا، مثل ظل يتحرك في حياتها دون أن تشعر به. حاولت وهي تحاول جاهدة أن تقطع الحبل الذي كان يربط بينهما، لكن يبدو أنه كان ينمو من جديد بقوة مثل جذور شجرة الزيتون.

في ذلك الصباح، ذهبت إلى الكوخ المشؤوم لتزور مباركة التگازة، تلك السحارة العجوز التي كانت بيديها المتجعدتين تحرك أواني القدر كما لو كانت مجرد لعب من طين. كان مباركة قد حذرتها بعبارات مبهمة من أن القرية على شفا حدوث شيء هائل، وأن ألسنة اللهب تنتظرها لتلتهم الهواء الراكد.

"عليكِ أن تكوني حذرة يا نجمة"، قالتها وصوتها مثل ورق الصنفرة على سطح أملس. "النار لا تميز بين الناس يا فتاتي. إنها تحرق الوسخ والنظيف، المؤمن والكافر، على حد سواء."

غادرت نجمة وقد انتابها شعور بعدم الارتياح، وترددت كلمات العجوز في ذهنها. لكنها لم تتوقع أن تصل النار بهذه السرعة، ولا بالشكل الذي ستصل به.

في تلك الليلة، كانت القرية مغطاة بالظلام. إنه ظلام من النوع الذي بدا وكأنه يخنق النجوم. ظهر خيال الحطاب على حافة الرؤية بينما كانت تحمل الماء من البئر. كان يتحرك بخفة حيوان مفترس، وعيناه تلمعان بنوايا جعلت بشرتها تقشعر وشعر رأسها يقف.

"لا يمكنك أن تتجنبيني إلى الأبد"، قالها وصوته منخفض، ولكنه قوي.

التفتت نجمة لمواجهته، وأحكمت قبضتها على جرة الماء. "دعني وشأني يا حطاب"، قالت وصوتها ثابت، ولكن مشوب بتيار خفي من الخوف.

اقترب منها وأنفاسه ساخنة على خدها. "أنتِ تنتمين إليّ يا نجمة. لي أنا وحدي فقط. لطالما كنتِ وستبقين كذلك." ومد يده برشاقة لتخترق ثيابها وتستقر بين فخذيها.

قبل أن تتمكن من الرد، قاطعهما صوت ارتطام من اتجاه الطريق المؤدي إلى متجر حسنة. التفتت نجمة مذهولة، وفي تلك

اللحظة الوجيزة من الإلهاء، اختفى الحطاب في الليل مثل كابوس.

في صباح اليوم التالي، استيقظت القرية على الفوضى. تصاعد الدخان من بقايا كوخ مباركة، بعد أن التهمته النيران في الساعات الأولى. وفي الداخل، وجدوا جثة مجهولة هامدة متفحمة إلى درجة يصعب التعرف عليها.

انتشرت الشائعات كالنار في الهشيم. قال البعض إنها حسنة وقد أضرمت النار في نفسها وهي في حالة ذهول، وتهامس آخرون بأن ذلك كان عملاً انتقامياً، تتويجاً لسنوات من التوترات غير المعلنة في القرية. لم تنبس نجمة ببنت شفة، وكان صمتها درعاً واقياً لها من العيون المتطفلة والأسئلة الاستقصائية الفضولية.

لم تكن حسنة موجودة في أي مكان. ادعى البعض أنهم رأوها تستقل سيارة الأجرة مع قليعي في وقت متأخر من الليل، وقد أخفت وجهها بوشاح. واعتقد آخرون أنها اختفت في الصحراء، وابتلعتها الرمال الممتدة التي لا نهاية لها.

بحلول الظهيرة، أصبحت القرية مرجلًا من الاضطرابات. تجمع الشباب، الذين شجعتهم أحداث الليل، خارج مركز الشرطة. ارتفعت أصواتهم غاضبة، صرخة جماعية ضد القمع الذي طالما خنقهم.

في الداخل، كان مرعي يخطو على الأرض، وأعصابه تتوتر مع كل لحظة تمر. لقد كان يحكم دائمًا بقبضة من حديد، وسلطته لا يرقى إليها الشك، لكنه الآن يجد نفسه محاصرًا، والجدران تكاد أن تضيق عليه.

عندما اقتحم الغوغاء المركز أخيرًا، لم يكن مرعي موجودًا في أي مكان. كان قد هرب تاركًا وراءه أثرًا من الدمار واليأس.

وبينما كانت الشمس تنخفض تحت الأفق، ملقيةً على القرية وهجًا ذهبيًا، وقفت نجمة على حافة الصحراء. شعرت بثقل النهار يضغط عليها، وأحداث الساعات الماضية تتلاشى معا في ضباب من النار والغضب.

ركض أمجد نحوها، وانزلقت يده الصغيرة في يدها. نظرت إليه وقلبها يخفق بحب شديد حارق.

"سنغادر قريبًا"، همست، على الرغم من أنها لم تكن متأكدة مما إذا كانت تتحدث إليه أو إلى نفسها.

من بعيد، اشتعلت الشرارات الأولى للثورة، وكان توهجها مرئيًا حتى من زاوية الحوايز الهادئة. كان الهواء يضج بالترقب، وكان الوعد بالتغيير يخيم بثقله على القرية.

أغمضت نجمة عينيها، وانجرفت أفكارها إلى القصص التي اعتادت مباركة أن ترويها عن الأرواح اللطيفة التي تجوب الصحراء وترشد التائهين إلى بر الأمان. وللمرة الأولى منذ فترة طويلة، شعرت ببصيص من الأمل، وشعرت بأنهما ربما، ربما فقط، سيجدان، هي وابنها، طريقهما للخروج من وكر الظلال هذا.

كان الدخان المتصاعد من كوخ التكازة مباركة يتصاعد بكثافة في الهواء، ممزوجًا بالتوتر المتصاعد الذي سيطر على القرية. انتشر الخبر بسرعة، "حسنة ماتت. حسنة انتحرت. حسنة حرقت نفسها بالگاز". وبحلول منتصف النهار، تجمع حشد من الناس في الساحة. بدأ الشبان، وقد أضيئت وجوههم بالغضب واليأس، في ترديد الهتافات، وبدأت أصواتهم تشق الصمت الذي حكم الحوايز لعقود.

في مركز الشرطة، كان مرعي يراقب من خلال النافذة الضيقة المحصنة بشيش الحديد، ووجهه شديد الشحوب. لقد كان دائماً لغز القرية، ولم يكن يستمد قوته من العطف، بل من

الخوف. والآن، انقلب هذا الخوف ضده. فقد طالب القرويون الذين شجعتهم همسات الثورة القادمة من العاصمة بالعدالة، أو ربما حتى بالانتقام.

كان الشيخ تراب، إمام الجامع، قد حبس نفسه في زاوية المسجد، وهو يتنقل بين الدعاء اليائس والمكالمات الهاتفية المحمومة مع السلطات التي لم تعد تبدو أنها تسيطر على الوضع. أما مرعي، الذي كان في يوم من الأيام تجسيدًا للخوف والسيطرة، فقد انسحب إلى داخل مركز الشرطة وأغلق بواباته الحديدية، حيث أصبح الآن محاطًا بالشبان الغاضبين المسلحين بالحجارة والهراوات الخشبية والعصي، وغضب المظلومين الذي لا يلين.

تحولت ساحة القرية القديمة، التي كانت يومًا ما مكانًا للمقايضة الهادئة والثرثرات الفارغة، إلى ساحة معركة. أما سيارة الأجرة التي كانت رمزًا للاتصال بالعالم الخارجي، فقد احترقت الآن وانثقبت إطاراتها وتحطمت نوافذها الزجاجية. ولم يكن السائق قليعي نفسه موجودًا في أي مكان، ربما ضاع في الفوضى أو اختار الهرب بحكمة.

كان الشرطي مرعي يعلم أن قوة الدعم ووحدات التدخل السريع لن تأتي في الوقت المناسب. كان بإمكانه سماع الهتافات تتعالى، وصوت الحجارة وهي ترتطم بجدران المركز. أمسك بمفاتيحه وأعطى أوامره باستخدام الذخيرة الحية في حال أن اقتحم المهاجمون المركز، وتسلل من الخلف، واختفى في الصحراء مثل شبح.

بدا أن الحريق الذي امتد من أطراف القرية ووصل مسرعا إلى متجر حسنة حيث المواد الكثيرة القابلة للاشتعال من جديد، قد أيقظ شيئاً ما في شباب الحوايز، جمرة تمرد خمدت طويلاً واشتعلت الآن. تجمعوا تحت أشجار النخيل الصحراوية عند

الغسق، وتحدثوا بنبرات خافتة عن التغيير والتحدي. سرت شائعات عن فساد مرعي وعلاقاته الخفية بعالم أبقى القرويين فقراء وخائفين على الدوام.

راقبت نجمة هذه التجمعات من بعيد، وقلبها ممزق. لم يكن لها مكان بين الشبان الثائرين، لكنها تفهمت غضبهم، والطريقة التي بدت بها الصحراء وكأنها تعكس مشاعرهم -رمالها تتحرك بشكل غير متوقع، ورياحها تعوي وكأنها تحتج. حتى الإمام، الشيخ تراب الذي لطالما كان مؤيدًا هادئًا للشرطي مرعي، بدأ يتلعثم في كلامه مع الناس، وكانت كلماته محملة بالتحذيرات المبطنة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

"لقد حان وقت الحساب"، قالها في الظهيرة، حينما كان صوته يصدح في باحة المسجد: "لقد حان وقت الحساب". "إن موازين العدالة ثقيلة، وسوف تنقلب على الجميع. المحسن يكافأ، والمسيء سيدفع الثمن".

في ذلك المساء، وبينما كانت القرية تحترق في أعقاب اختفاء مرعي، وقفت نجمة على حافة الصحراء. لم تكن قد أخذت معها سوى القليل -مجرد كيس من القماش فيه شيء من طعام وقارورة ماء، وكانت يد أمجد تمسك بيدها بإحكام. ومن خلفها بدت الحوايز هادئة تقريبًا في وضعها الجديد، رغم أنها كانت تستحق هدوءا أفضل من ذلك. كانت نيران الانتفاضة قد بدأت للتو في الانتشار، بعد هدوء مناطل سبق العاصفة.

"إلى أين نحن ذاهبون يا أمي؟ سألها أمجد، وكان صوته الصغير يحمل الخوف والتساؤل في آن واحد.

جثت نجمة على ركبتيها إلى مستواه، ونفضت الرمال عن خديه. "إلى حيث تأخذنا الرياح يا حبيبي. إلى مكان بعيد عن هنا. لا تخف".

اعتقدت نجمة أنها رأت من بعيد شخصًا ينتظرها -هل هي حسنة، هل هي روحها؟ - متشحًا بالبياض ومتلألئًا كالسراب. أومضت نجمة بعينيها وفركتهما بأصابعها، فاختفى ذلك الشكل، ولم يتبق سوى مساحة لا نهاية لها من الرمال.

لأول مرة، سمحت لنفسها أن تراقب الصحراء في صمت، وكثبانها تتضخم وتتنهد مثل وحش قديم استيقظ من النوم. كانت تحمل في رمالها المتحركة ذكريات حيوات لا حصر لها - كل حبة منها تروي حكاية حب وخيانة وغدر وخسارة، ابتلعها الزمن ونسيها.

في تلك الليلة، بينما كانت نجمة مستلقية في سريرها، بدت جدران منزلها تتلاشى لتحل محلها الصحراء التي لا نهاية لها. تحركت الشخوص من بعيد، وتغيرت أشكالهم مثل الدخان، وأصواتهم جوقة من العويل والرثاء والوعود. كانت تعلم أنهم لم يكونوا أحياء ولا أمواتا، بل كانوا شيئًا ما بين بين، حراسًا للحقائق المدفونة تحت الرمال منذ قرون.

كانت ألسنة اللهب تتراقص بإيقاعات أنيقة وقاسية، تلتهم الحيطان والأرفف الخشبية وعلب المؤن وتنكات السمنة البلدي وجرار زيت الزيتون في متجر حسنة كما لو كانت بقايا ماضٍ رفض الاستسلام. ولكن، في الرماد، كان هناك همس لشيء جديد، إنه طائر الفينيق ينهض من رماده الملتهب.

أطلت نجمة ونظرت عميقا في البئر. كانت مياهه المظلمة تموج بهمسات لا يسمعها إلا هي. كان الأمر كما لو أن الأرض نفسها تحمل أعباءها وتحملها في أعماق قلبها حيث لا يمكن لأي إنسان أن يصل إليها. كانت الصحراء أكثر من مجرد رمال وعقارب وهوام وظلام، كانت حية وشاهدة على أسرار وخطايا الحوايز وأهلها. وكثيراً ما شعرت نجمة بأنها تراقبها وتراقبها، وكثبانها المتحركة تهمس لها بقصص تتلى بلغة لم تستطع فهمها مطلقا.

في ذلك اليوم، وبينما كانت تقف في الفناء والشمس تشرق عالياً، ظنت أنها سمعت اسمها محمولاً مع الريح -كان صوتاً ناعماً حزيناً اختفى بسرعة كما جاء. شدّ أمجد تنورتها وكسر التعويذة. "ماما، هل تسمعينهم؟" سألها وعيناه الواسعتان مثبتتان في الأفق. ركعت أمامه وهي تمشط شعره وتبعده برفق عن عينيه: "أسمع ماذا يا حبيبي؟". قال ببساطة: "الأصوات"، وكما لو كان الأمر واضحًا، أضاف: "إنهم ينادوننا". انقبض قلب نجمة، لكنها لم تقل شيئًا. غالباً ما كان الأطفال يرون أشياء لا يراها الكبار، ولكن كان من الأفضل عدم تشجيعهم على مثل هذا الكلام.

لطالما كان البئر مكانًا غامضًا في الحوايز. زعم البعض أنه ملعون مسكون بالجن، وأقسم آخرون أنه بوابة إلى عالم آخر غامض وسري. بينما تهامست النسوة قائلات أن حوله غالبا ما تحاك الدسائس والمغامرات والمواعيد الشيطانية، وتسمع بين ليلة وأخرى أصوات شبق وتأوهات لذائذ محرمة تصدر من فتيات مكبوتات بلغن مواسم النضج والقطاف ولم يسيطر على شهواتهن أحد. لم تكن نجمة متأكدة مما تسمعه، ولكن عندما اقتربت منه في ذلك اليوم، شعرت بثقل يستقر فوقها، كما لو أن عيونًا خفية تراقبها. جلست مباركة بجانب البئر، وكان جسدها الضعيف ملفوفًا بطبقات من القماش الباهت. كانت يداها تتحركان بسهولة متمرسة، راسمةً خطوطا في الرمال بدت وكأنها تتلألأ قبل أن تتلاشى في العدم. "الصحراء تنادينا الليلة"، غمغمت مباركة ونظراتها مثبتة في الأفق. "ولن تظهر أية رحمة. ستمحق الجميع دون أية رحمة". عبست نجمة وارتعشت. "ماذا تقصدين يا عجوز الشؤم؟". التقت عينا مباركة بعينيها الحادتين والمعروفتين بجمالهما. "النار يا نجمتي، النار. ليس الخشب واللحم فقط ما سيحترق - بل كل ما نحن عليه، كل ما كنا عليه. "عندما استدارت نجمة لتغادر، ألقت نظرة على البئر

للحظة، وظنت للحظة أنها رأت وجهًا ينعكس في الماء، لم يكن وجهها بل كان وجهًا قديمًا بعيون تشبه الثقوب السوداء.

عندما اندلع الحريق في القرية، لم ينتشر كما تنتشر النيران العادية. لقد رقصت النيران وقفزت من سطح إلى آخر ومن بيت الى آخر برشاقة متعمدة، كما لو كان لها عقل خاص بها. أقسم الشهود في وقت لاحق أنهم رأوا أشكالاً تتحرك داخل ألسنة اللهب -أشكال أشباح بأطراف مستطيلة وعيون جوفاء. كان الشهود يتهامسون عن تلك الأشكال، غير متأكدين ما إذا كانت تلك الأشكال قد ولدت من النار أو من الظلال التي ألقتها. اعتقدت نجمة، التي كانت تقف عند مدخل منزلها، أنها رأت أحدهم يتوقف مؤقتًا -شكله يتلألأ كالدخان- قبل أن يختفي في جوف الليل. ملأ الهواء همهمة منخفضة غير مألوفة، وامتزجت مع طقطقة اللهب. كان صوتًا بدا وكأنه قادم من الصحراء نفسها، يهتز من خلال الأرض وفي عظام القرويين المدفونين في المقبرة البعيدة. عندما عثروا على جثة أخرى مشوهة وسط الرماد ظنوا انها للحطاب. أقسم الكثيرون أنهم رأوا يده ممدودة نحو البئر، كما لو كان يزحف نحوه في لحظاته الأخيرة. وتهامس آخرون أن موته لم يكن حادثًا، وأنه قد التهمه شيء أقدم بكثير وأكثر جوعًا من النار. كانت مياه البئر، التي كانت ساكنة ومظلمة عادة، قد ارتجّت وتمخضت في تلك الليلة، كما لو كانت تتفاعل مع غضب اللهب.

بعد اشتداد الحريق، أصبح اختفاء حسنة موضوعًا لمزيد من التكهنات. ادعى البعض أنها هربت من مصير مرتبط بالنيران؛ بينما اعتقد آخرون أن الصحراء قد أخذتها وابتلعتها. أصرّ قليعي، سائق سيارة الأجرة، على أنه رآها تستقل سيارته، لكن روايته تبدلت مع كل رواية عن اشتباكات شبان القرية. لم تستطع نجمة أن تتخلص من الشعور بأن حسنة أصبحت جزءًا من الصحراء، وأن روحها تجوب الكثبان الرملية جنبًا إلى

جنب مع تلك الأرواح التي كثيرًا ما تحدثت عنها مباركة. في الليل، كانت نجمة تحلم بأن الرمال تتحرك لتكشف عن وجوه، بعضها مألوف والبعض الآخر غير مألوف -كل واحد منهم يهمس باسمها. كانت تستيقظ غارقة في العرق والحمى والارتجاف، وجسد أمجد الصغير متكور وملقى على جانبها طالبا الحماية.

أصبح البئر نقطة محورية في اضطرابات الأهالي. بدأت مباركة بتحذير الناس بالابتعاد عنه بدعوى أن الأرواح لا تهدأ إلا بالابتعاد عنه. في المساء، وبينما كانت نجمة تجلب الماء ثانية، اعتقدت أنها رأت شيئًا يتحرك في أعماق البئر، وميضا من الضوء لم تأنس إليه من قبل. اقتربت أكثر، وللحظة، شعرت كما لو أنها تسقط، والعالم من حولها يذوب في الظلام. رأت كما لو أن الحوايز تلتهمها النيران، وقد تحولت مبانيها إلى رماد؛ ومرعي، رئيس الشرطة المخيف، يركض في الصحراء، تلاحقه ظلال بدت وكأنها تنمو من الرمال نفسها؛ وأمجد، يقف وحيدًا تحت السماء الشاسعة، وعيناه تتوهجان كالجمر. عندما سحبت نجمة نفسها أخيرًا، كان الماء ساكنًا مرة أخرى، لا يعكس سوى وجهها الشاحب الخائف. سقطت جرة الماء من يدها وتحطمت على الحجارة، وهربت عائدة إلى منزلها.

اشتعلت النار في دكان حسنة، ليس فقط بالمعنى الحرفي للكلمة، بل بالمعنى المجازي أيضا. بدأ شباب الحوايز، الذين خنقهم حكم مرعي القمعي منذ فترة طويلة، يتجمعون في الخفاء، وغضبهم يبعث على التفكك.

راقبت صبوة من أبواب منزل حسنة، ووجهها نصف مضاء بالنيران، كل التحركات المريبة في القرية الصغيرة التي تمقتها مقتا بطعم السموم. لقد عرفت أن شيئًا ما سيحدث، لكنها لم تتخيل أبدا أنه سيكون بهذه الطريقة الكارثية. لقد كانت خيانتهم لحسنة والحطاب -وإن كانت متعمدة- فهي لا شيء بالقياس إلى هذا المخطط الكبير الذي يهدد حياة القرية. إنه مجرد لعبة

أخرى من ألعاب القوة والصراع من أجل البقاء التي لا تنتهي. هكذا أخذت صبوة تقنع نفسها بنفسها. ومع ذلك، فقد تفوقت تلك الفتاة اللعينة عليهم بطرق لم يتمكنوا من فهمها. لقد ترك اختفاؤها فراغًا، وقد امتلأ ذاك الفراغ بالنار وأصوات الرصاص.

شعرت صبوة بالخفقان في صدرها قبل أن تدرك أنها كانت تحبس أنفاسها. بدت النار حية، مثل عفريت خرج من مصباح طيني، وترددت صرخات الشباب في الميدان بطاقة محمومة. وتحول مركز الشرطة، الذي لطالما كان موقع العديد من الإهانات والانتهاكات، إلى مكان منذر بالسوء وصامت حد الموت، كقلعة تنتظر حصارها.

عندما بدأوا رحلتهم، بدت الصحراء مفتوحة أمامهم، والرمال تتحرك كالكائنات الحية. شعرت نجمة بثقل الماضي يزول مع كل خطوة تخطوها، وابنها الأمجد معها، على الرغم من أن أصوات الصحراء كانت لا تزال تهمس في أذنيها، كلماتها غير واضحة، ولكنها متواترة مستمرة بلا هوادة.

الشرارة

أنفاس الرمال

كانت قرية الحوايز محاطة بالشفق، في مكان معلق ما بين الصحراء والسماء، بين حياة عاشتها وحياة طمحت إليها. كانت الكثبان الرملية البعيدة تتلألأ بشكل خافت تحت أول هلال من ضوء القمر، وكانت منحنياتها تهمس بقصص قديمة تحملها رياح الليل. كانت النار التي التهمت المتجر الصغير في وقت سابق من المساء قد تحولت الآن إلى جمر مشتعل، لكن وجودها ظل باقيًا في الهواء، تذكيرًا حادًا لاذعًا بتباشير الثورة التي بدأ للتو في الظهور.

بالنسبة للحطاب، كان الليل متاهة من الخسارة. كان يتعثر في الأزقة المتربة، وكانت أنفاسه متعبة، وأفكاره متجزأة. كانت رائحة الخشب المحروق تختلط بحلاوة وجود حسنة بجسدها الفتي، شبح عالق بجلده. كان لا يزال يشعر بتأثير جسدها على السرير، وانحناء ابتسامتها التي لم تصل إلى عينيها أبدًا. لقد رحلت، ولكن الطريقة التي اختفت بها دون سابق صوت ولا إنذار. قد تركته في حالة من التفكك. لم يكن يدري هل يسمي ذلك انتصارها أم هزيمته.

كانت الصرخات القادمة من الميدان تصل إلى أذنيه وكأنها قادمة من مسافة بعيدة. فقد تجمع شباب الحوايز هناك، وكانت أصواتهم خشنة ملطخة بالغضب وبأمل غريب متقد. ولم يشعر

الحطاب بأية صلة بهتافاتهم، ولا بأي ولاء لقضيتهم. لقد كان وحيداً في عذابه، رجل لم تدمره الثورة بل امرأة انزلقت من بين أصابعه كما يتسرب الماء عبر رمال الصحراء.

وعود ورعود

في ظلمة مركز الشرطة، كان مرعي يمشي جيئة وذهاباً مثل حيوان في قفص. وكانت ومضات اللهب البعيدة ترسم ظله على الجدران المتشققة، فتطيل شكله وتشوهه. وكان رجال الأمن تحت قيادته يجلسون في صمت وهم في كامل قيافتهم العسكرية وتسليحهم القتالي، ووجوههم مشدودة بالخوف وعدم اليقين. ولم يجرؤ أحد منهم على الكلام. ولم يعد المركز مكاناً للسلطة؛ بل أصبح قبراً ينتظر نبشه وتدنيسه.

توقف مرعي عند النافذة الصغيرة المطلة على الميدان. ما رآه أرعبه أكثر من ريح الليل. لم يكن الشبان يتجمعون فحسب؛ بل كانوا يتقدمون. كانت مشاعلهم المؤقتة تلقي ضوءًا متلاطمًا على وجوههم، وارتفعت أصواتهم في موجة مد من التحدي. قبض مرعي على زناد بندقيته، وعقله يسابق الزمن بحثًا عن مخرج. لقد كان دائمًا رجلًا يتمتع بالسلطة المحسوبة، وبيروقراطيًا يزدهر في نظام القواعد والمراسيم. لكن الليلة، كان النظام الذي يخدمه ينهار، وشعر بثقل انهياره يثقل كاهله وينبئه بنهاية اللعبة.

فكر في زوجته وأطفاله في مركز الولاية البعيد، وفي الوعود التي قطعها على نفسه عندما ارتدى زيه العسكري لأول مرة. شعر بكل تلك الذكريات وكأنها حياة مختلفة، حياة لم تعد ملكًا له. الآن، كل ما تبقى هو مسألة البقاء على قيد الحياة. ومع ارتفاع الهتافات، اتخذ مرعي قراره. سيغادر، ويتسلل إلى ليل الصحراء،

ويختفي مثل العديد من الذين سبقوه. لم يكن هنالك أي شرف في البقاء، ما بقي فقط هو العبث الذي لا شرف له.

أصوات من الماضي

في قلب الميدان، وقفت البئر القديمة كشاهد صامت على الأحداث. بدت أحجارها، التي تآكلت بفعل قرون من الرياح والزمن، وكأنها تهتز بطاقة الحشود الثائرة. لقد شهدت البئر أجيالاً تمضي وتجيء، وكانت حياتهم تتسم بالجفاف والأعياد، والولادات والخيانة والهزائم. والليلة، ها هي تشهد شيئاً جديداً: نار التمرد، وهي قوة لا يمكن التنبؤ بها ولا السيطرة عليها مثل رياح الصحراء.

راقب شيوخ القرية ومسنيها، الذين تجمعوا على أطراف الميدان، ما يحدث بمزيج من الرهبة والخوف. لقد عاشوا نوعا من الثورات من قبل - موجات من التغيير التي وعدت بكل شيء ولكنها لم تحقق سوى القليل. ومع ذلك، كان هناك شيء مختلف في هذه الليلة. كان الشباب، الذين أضاءت وجوههم أضواء النار، يحملون شراسة لا يمكن احتواؤها.

كانت الشمس قد بدأت تغرب في الأفق عندما بدأت قرية الحوايز تكتسب جوًا من الترقب. كانت المنازل الطينية ذات اللون الأصفر المحمر والبني المحمر تتلألأ في الشفق، وتذوب حوافها في الكثبان الرملية الممتدة نحو الحدود. كان هناك سكون غريب يملأ الهواء، لكنه لم يكن سكون السلام، بل سكون شيء على حافة الهاوية، يحبس أنفاسه قبل أن يغرق في الفوضى.

اختفت حسنة دون أن تترك أثراً. كان سريرها، حيث يرقد حطاب الآن ممددًا، يحمل رائحتها، ولكن لا شيء آخر. كانت الملاءة الملتوية حول ساقيه مبللة بالعرق ومعطرة بشكل

خفيف، على الرغم من أن حلاوتها بدت الآن خانقة. تحرك في نومه، وشفتاه تتمتمان بشظايا غير متماسكة من الرغبة والخوف. في الخارج، ارتفعت خيوط الدخان الأولى إلى السماء المظلمة، والتهمت النار، التي بدأت كجمرة متوهجة، المتجر الصغير الذي يملكه والد حسنة.

كان متجرًا عاديًا، مكتظًا ببقايا حياة القرية: علب زيت الطهي، ومسامير من القماش الرخيص، وبكرات الخيوط، والأرفف المتربة المبطنة بجرار العدس والحمص. ولكن الآن، بينما كانت النيران تقفز بشراهة من الرف إلى السقف، تحولت محتويات المتجر إلى شيء رمزي. لم يكن مجرد متجر يحترق، بل كان مركز حياة، ومجتمع، ونظام. بدا أن النار، التي ولدت من الغضب والإهمال، تنتشر بإيقاع مع الهتافات المتصاعدة للشباب المتجمعين في الساحة.

ملجأ لشرطي وحيد

جلس مرعي في المكتب المظلم في مركز الشرطة، وأضاء وهج سيجارته وجهه النحيف. وصل وميض اللهب في الخارج إلى عينيه لكنه لم يدفعه للتحرك. كان ينتظر، كما كان ينتظر دائمًا، الأوامر من "فوق"، والتعزيزات من مركز الولاية. لقد قلل من شأن غضب الشبان في الحوايز. لقد تصور أنهم يرتعدون، كما كانوا دائماً، من الخوف والفقر والرتابة الساحقة لحياة القرية.

لكن شيئاً ما قد تغير. لم تعد النار في المتجر وكوخ العرافة فقط -لقد كانت في قلوبهم، وكانت تنتشر بسرعة أكبر مما يستطيع السيطرة عليها. كان مرعي يدرك هذا، ومع ذلك فقد تمسك بإيمانه بآلية السلطة، في حتمية سلطته. لقد أصبح مخلوقاً من

النظام، والآن بعد أن بدأ النظام يتعثر ويتهاوى، وجد نفسه مشلولاً.

همس البئر

في قلب الميدان، ارتفعت الهتافات تنادي بالحرية والخبز والكرامة! كانت الكلمات تشق الهواء الكثيف مثل شفرة. ومع ذلك، تحت صرخات التمرد، كان من الممكن سماع صوت آخر -همهمة منخفضة ومستمرة، وكأن القرية نفسها تتحدث. "لقد بدا البئر القديم في وسط الميدان، والذي كان جافاً لعقود من الزمن، وكأنه يتردد صداه بأصوات أولئك الذين استقوا منه الماء في أعمار سابقة. لقد تحمل البئر، مثل القرية، أجيالاً من النضال والصمت. وفي هذه الليلة، بدا وكأنه يستيقظ من سبات عميق.

لقد استيقظ الحطاب الآن من نومه المضطرب، وتعثر في الشارع. كان وجهه، الملطخ ببقايا انغماسه في الليل، عبارة عن قناع غريب من الارتباك والخوف. لم يلاحظ غياب حسنة حتى اخترقت النيران والهتافات ورصاصة طائشة ضبابه المخمور. والآن، بينما كان يترنح وهو متجه نحو الميدان، شعر بثقل غيابها كألم جسدي. لقد كانت هوسه، وامتلاكه، والآن رحلت، تاركة وراءها فراغاً بدا أن النار والغضب عازمتان على ملئه.

العرين

بحلول الوقت الذي خرج فيه مرعي من مركز الشرطة، كانت الساحة عبارة عن كتلة هائجة من الجثث. كان الشباب، الذين اكتسبوا الشجاعة من أعدادهم وألسنة اللهب المتصاعدة، مسلحين بكل ما يمكنهم العثور عليه -العصي والحجارة وحتى

شظايا الزجاج من النوافذ المحطمة للمتجر. كان وجود مرعي، الذي كان كافياً لإسكات القرية بأكملها مرة واحدة، يثير الآن السخرية والتهديدات والقبضات المزمجرة. وقف للحظة، وكان زيه الرسمي يتناقض بشكل صارخ مع الفوضى من حوله، قبل أن يتراجع إلى مكتبه في المركز والذي كان يسميه "العرين".

في الداخل، وعلى طاولته في "العرين"، كان الهواء مشبعًا بالتوتر. كان رجال مرعي، الذين كانوا قليلي العدد وغير مستعدين لمثل هذه الانتفاضة رغم تسلحهم بالمسدسات والرشاشات الآلية، ينظرون إليه طلبًا للتوجيه. لكن مرعي لم يكن لديه ما يقدمه لهم. كانت سلطته، المطلقة في أوقات استتباب النظام، تنهار في مواجهة الفوضى والتمرد. فكر في عائلته وفي الوعود التي قطعها على نفسه عندما انخرط في سلك الشرطة لأول مرة. شعر أن تلك الوعود جوفاء الآن، مثل صدى بئر جفت مياهه منذ فترة طويلة.

الهروب الكبير

داخل مركز الشرطة، كان مرعي يمشي جيئة وذهابًا مثل حيوان محاصر. بدا أن شخصيته التي كانت مهيبة في يوم من الأيام تتقلص مع مرور كل يوم، حيث تحولت همسات القرويين إلى تحدٍ علني. جدران القسم، التي كانت ذات يوم رمزًا للسلطة، بدت الآن وكأنها قفص معدني. كان الحريق في متجر حسنة وكوخ التگازة وموت الحطاب قد أزعج الجميع، ولكن ليس أكثر من مرعي الذي بدأ يرى ظلالاً حتى في أكثر زوايا مكتبه إشراقاً.

"إنهم قادمون"، تمتم لنائبه "إنهم قادمون"، على الرغم من أنه لم يستطع أن يقول من هم أولئك الذين يسميهم "هم".

عندما تجمع الغوغاء أخيرًا خارج المركز، وارتفعت أصواتهم مثل هدير عاصفة رملية، أدرك مرعي أن الأمر قد انتهى. تحطمت

الصخور عبر النوافذ، واندلعت ألسنة اللهب على حواف المبنى، وكانت الفوضى قد اجتاحت القرية بشكل كامل

لكن عندما اقتحم الغوغاء الأبواب، كان مرعي قد اختفى، ولم يتبق منه سوى زيه العسكري الملفوف على ظهر كرسيه وأثر قدم واحدة في الرمال المؤدية إلى الصحراء. زعم البعض أنه هرب إلى مركز الولاية، حيث كانت التعزيزات في انتظاره. واعتقد آخرون أنه ابتلعته الكثبان الرملية، وحملته الرياح بعيدًا. بينما حاول البعض من الغاضبين التأكيد على صورة تعليقه عاريا على أحد أعمدة الكهرباء حيث يكون التشفي لا دواء له.

إرث حسنة

وأين حسنة؟ في وسط الفوضى، كان غيابها حضورًا خاصًا بها. همس أهل القرية باسمها وكأن الاسم يحمل مفتاح أسرار الليل. قال البعض إنها هربت إلى عمق الصحراء الإفريقية، وتسللت عبر الحدود تحت جنح الظلام. وزعم آخرون أنها لجأت إلى الجبال، وانضمت إلى الأرواح التي قيل إنها تطارد تلك القمم المهجورة. لكن لا أحد يعرف على وجه اليقين.

ما كان مؤكدًا هو أن اختفاءها كان بمثابة بداية لشيء ما. كان الأمر وكأن تصرفها المتحدي، ورفضها أن تكون ضحية، قد حطم التوازن الهش للقرية. النار، والهتافات، والغضب -كل هذا يعود إليها. لم تكن هناك لتشهد على ذلك، ومع ذلك كان وجودها يهيمن في كل مكان.

العتبة

مع تقدم الليل، استهلكت النار أكثر من المتجر. قفزت من مبنى إلى آخر، كائنًا حيًا له إرادة خاصة به. أصبح القرويون، الذين

كانوا متفرجين ذات يوم، مشاركين، يغذون النيران بمظالمهم الخاصة. تحدث الشيوخ عن الثورات الماضية، عن الصراعات التي جاءت ومرت دون أن تغير حياتهم حقًا. بكت النسوة، واختلطت دموعهن بالدخان الذي يلسع عيونهن.

في النهاية، سقط مركز الشرطة بعد أن سقطت العديد من الجثث من الجانبين. تخلى مرعي عن رجاله، وتسلل من الخلف واختفى في الليل. قال البعض إنه اتجه نحو الحدود، بينما اعتقد آخرون أنه اختفى ببساطة، ابتلعته الصحراء. وقف الشبان، المنتصرون، ولكن غير المتأكدين، على أنقاض المركز وأشلاء الجثث، وتراجعت هتافاتهم إلى صمت ثقيل. لقد بدأت الثورة، لكن لا أحد يستطيع أن يتكهن بنهايتها.

موعد مع الزمن

كانت قرية الحوايز، تلك التي كانت ذات يوم مكانًا للهدوء والراحة والاستسلام، تحمل الآن ندوب صحوتها المتأخرة. تحول الميدان والمقهى والبئر والمتجر والجامع ومركز الشرطة إلى أشياء مشبعة بذكريات الدم والنار والتحدي. وفي مكان ما، بعيدًا عن النيران والعنف والهتافات، كانت نجمة تمسك بيد ولدها "الأمجد" وتسير الهوينى لوحدها ملبية نداء الأرواح الهائمة في الصحراء نحو المجهول. بينما حسنة تسير بمفردها أيضا، لكن خطواتها كانت موجهة بقوة لا تستطيع تسميتها. لقد حملت معها ثقل ما تركته وراءها، ولكنها حملت معها أيضًا وعدًا بما قد يأتي. في غيابها، وجدت القرية صوتها. وفي صمتها، وجدت أغنيتها.

هامش:/

على الصفحة 59:

القصيدة للشاعر الإنكليزي: تيد هيوز، من كتابه "رسائل عيد الميلاد". ترجمها إلى العربية: حكمت الحاج.

الفهرست